الأفق المفقود

تعريب

شوقي السنورسي

مراجعة

دكتور نظمي لوقا

مؤسسة كامل مهدى تقدم :

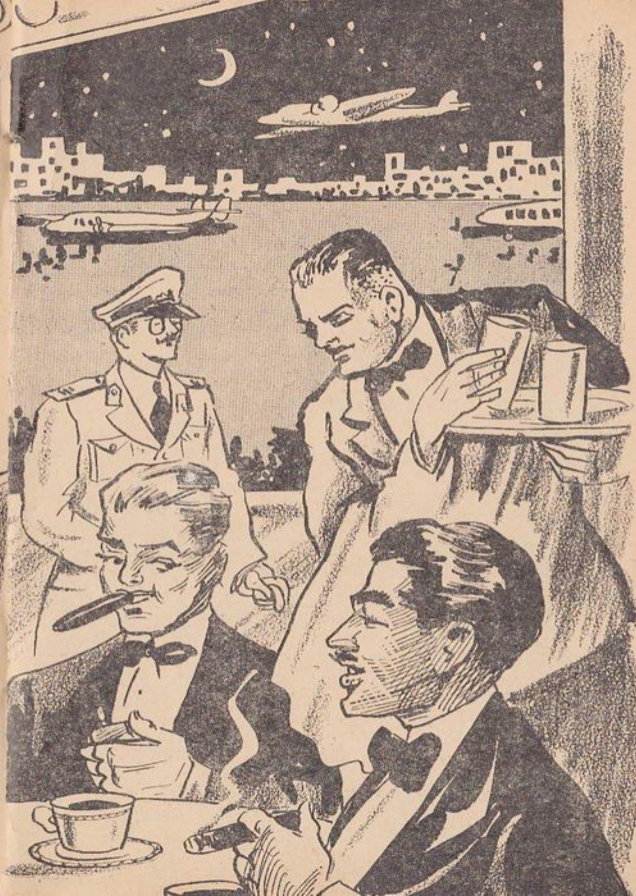
الأفق المفقود

تأليف : جيمس هيلتون

تعريب : شوقي رياض [illegible]

مراجعة : الدكتور [illegible]

فرغنا من تدخين السيجار ، أو كدنا . . واخـذت تنقشع عنا غشاوة الاوهام ، ذلك الانقشـاع الذى يصيب عادة زملاء الدراسة القدامى حين يلتقون وقد اضحوا رجالا ، ليجدوا انفسهم ، وليست بينهم تلك الحيـاة المشتركة التى كانت بينهم اثناء الدراسة . وكان بيننا « رذرفورد » الذى اضحى مؤلفـا للروايات ، و « وايلاند » الذى كان سكرتيرا لاحـدى المفوضيات ، وهو الذى دعانا الليلة للعشاء فى مطار تمبلهوف ، فكانت السـهرة شائقة وكانت جلستنا تشرف على المطـار ، فلما حل الغسق ، واضيئت المنارات اضفت على المكان بريقا مسرحيا غنيـا ، وكانت احدى الطائرات انجليزية ، وقد اقبل قائدها فى كسوة الطيران الكاملة نحومائدتنا وحيا «وايلاند» فلم يعرفه وايلاند لاول وهلة . . فلما فطن اليه ، تم تقديمه للجميع ،



ثم دعى ذلك الغريب الى مشاركتنا الطعام . وكان شابا لطيفا يدعى « ساندرز » . واعتـــذر « وايلاند » اليه بصعوبة التعـرف على الاشخاص حين يكونون فى ملابس الطيـران ، فضحك « ساندرز » ورد قائلا :

ـ اعلم هذا تمام العلم ، ولا تنس اننى كنت فى باسكول وكانت صحبته عنصرا شائقا فى جماعتنا الصغيرة

وفى حوالى العاشرة غادرنا وايلاند برهة ليتحدث الى شخص فى المائدة المجاورة ، وعلق رذرفورد فجاة :

ـ على فكرة .. لقد اشرت الآن الى باسكول ، وانا اعرف هـذا الموضع بعض المعرفة ، فما الذى اشرت الى حدوثه هناك ؟

فابتسم ساندرز فى حياء وقال :

ـ انه اضطراب بسيط حدث بينما كنت فى الخـدمة العسكرية هناك . والواقع ان افغانيا او افريديا او ما الى ذلك ، انطلق باحدى ناقلات الركاب التابعة لنا ، ونجمت عن ذلك متاعب كثيرة ، فقد صرع ذلك الشخص الطيار واستولى على كسوته ، ثم صعد الى مقعـد الطيار دون ان يفطن اليه احـــد ، واعطى الميكانيكيين الاشـــارات المضبوطة ، ثم حلق وارتحل .. والخطير فى الموضوع انه لم يعد بعد ذلك ابدا . .

فبدا الاهتمام على رذرفوزد ، وساله :

ـ ومتى حدث ذلك ؟

ـ منذ نحو عام ، فى مايو ١٩٣١ ، وكنا نجلى المدنيين عن مدينة باسكول الى مدينة بيشـــاوار بسبب الثورة ، وكان الاضطراب والفوضى يسودان المكان ، والا لما حدث هذا

فقال رذرفورد وعلائم الاهتمام لا تزال بادية على محياه :

ـ كان يخيل الى ان اكثر من شخص واحد يعهد اليهم بكل طائرة فى مثل ذلك الظرف

ـ لقد كنا نفعل ذلك بالنسبة لناقلات الجنود العادية ، اما هذه الطائرة فقـــد كانت من طراز خاص ، صنعت فى الاصل لأحـــد المهراجات ، بحيث تستطيع التحليق فى طبقات الجو العليا

ـ ولكنك تقول انها لم تصل بيشاور على الاطلاق ؟

ـ لم تصل الى هناك ، ولم تهبط فى اى مكان آخر ، على ما نعلم ، وهذا هو موضع الغرابة فى المسالة

ـ وكم كان عدد ركاب الطائرة ؟

ـ اربعة على ما اظن . . ثلاثة رجال واحدى السيدات المبشرات التابعة لاحدى الارساليات

ـ هل كان احد الركاب بالمصادفة يدعى كونواى ؟

فبدت الدهشة على ساندرز وقال :

ـ اجل كان فيهم فعلا ، هل تعرفه ؟

ـ كنا معا فى مدرسة واحدة

ـ لقد كان شابا مدهشا ، بفضل ما اداه فى باسكول

فاوما رذرفورد براسه وقال :

ـ نعم ، بلا شك ، ولكن يا للغرابة . . . يا للغرابة . .

وبدا رذرفورد كانما هو يستجمع شتات افكاره بعـد فترة من شرود الذهن ، ولم يلبث ان قال :

ـ ان الصحف لم تشر الى الحادث ، والا كنت قرات عنه ، فكيف حدث هـذا ؟

فظهر شيء من عدم الارتياح على وجه ساندرز ، بل يخيل الى ان وجهه اوشك ان يحمر ، ثم قال :

ـ الحقيقة يبدو اننى افضيت اكثر مما ينبغى ، او لعل الامر لم يعد له خطره الآن ، لقد اخفى النبا فى حينه ـ اعنى الطريقة التى

تم بها — لان وقعها لم يكن طيبا ، واعلن رجال الحكومة ان احـدى الطائرات فقدت وحسب ، ثم ذكروا الاسماء

وفى هذه اللحظة انضم الينا «وايلاند» ، فالتفت اليه ساندرز قائلا :

— لقـد اكتشفت ان هؤلاء الرفاق يعرفون كونواى ، لقـد كنا نتحدث عن مسالة باسكول

فالتفت ويلاند نحو رزرفورد وقال :

— هل تعرف كونواى جيدا .. اعنى منذ ايام المدرسة ؟

— عرفته بعض المعرفة فى اكسفورد ، وجمعتنا المصادفات القليلة بعد ذلك ، فهل التقيت به انت كثيرا ؟

— فى انقرة .. حين كنت اقيم هناك ، التقيت به مرة او مرتين

— هل اعجبت به ؟

— رايت فيه براعة ، ولكنه يميل الى الكسل

وابتسم رذرفورد وقال :

— كان ذكيا بالتاكيد ، فحياته الجامعية كانت ناجحة جدا ، حتى نشبت الحرب واعتقد انه اعظم هاو يعزف البيانو سمعته فى حياتى ، وبالطبع وضعت الحرب حدا لدراسته

فأجاب وايلاند قائلا :

— لقد انفجرت فيه قنبلة او نحو ذلك ، ولكن الامر لم يكن خطيرا ، واعتقد انه عاد الى اكسفورد فترة من الزمن ، وعرفت انه رحل الى الشرق فى سنة ١٩٢١ . وكانت دراساته فى اللغات الشرقية قـد اتاحت له العمل بغير عنـاء

وعنـدئذ نهض رذرفورد لينصرف ، ولمـا كان الوقت قد امسى متأخرا ، فقد اعربت عن رغبتى فى الانصراف كذلك ، اذ كان على ان استقل قطارا يعبر القارة فى ساعة مبكرة من الصباح ، وفيما نحن ننتظر سيارة الاجرة ، سـألنى رذرفورد ان كان يعنينى ان اقضى

الفترة الباقية فى فندقه ، فقلت له ان ذلك يلائمنى للغاية ، فأجابنى :

— حسنا . ويمكننا ان نتحدث عن كونواى ان شئت ، اللهم الا اذا كان موضوعه يثقل عليك

فقلت له اننى لا اضيق بحـديثه مطلقا ، وان كنت لم اعرفه الا ايسر المعرفة ، لانه غادر الجامعة بعد فترتى الجامعية الاولى ، ولم اقابله بعد ذلك ابدا ، بيد انه كان بالغ العطف على فى مناسبة واحدة ، وهى تافهة فى حد ذاتها ، ولكنى ما زلت اذكرها

فاومأ رذرفورد موافقا ، ثم قال :

— اجل كنت انا احبه الى حد كبير ، مع اننى مثلك لم اكن اراه الا نادرا ، اذا قست ذلك بمقياس الزمن

وساد الصمت بعد ذلك ، فكان له وقع غريب ، وكان من الواضح ان كلينا كان يفكر فى شخص يعنينا امره اكثر مما توحى به اتصالاتنا العرضية به ، ولقد اكتشفت فيما بعد ان اشخاصا آخرين ممن التقوا بكونواى ، ولو فى حدود الرسميات فقط ، كانوا يتذكرونه بعدها الى حد كبير من الوضوح

ولا شك انه كان فى شبابه فتى لامعا ، ولم تزل ذكراه عنـدى واضحة تمام الوضوح : كان طويلا ، وسيما غاية الوسامة . ولم يكن ممتازا فى الالعاب فحسب ، بل كان يظفر بكل نوع يتصوره عقل من انواع الجوائز المدرسية

واخترقت العربة بنا شوارع قليلة ونحن مستغرقان فى الصمت ، وبعد ذلك استأنف رذرفورد الكلام قائلا :

— ما كنت احب ان تفوتنى سهرة الليلة ، وقد كانت تجربة خارقة لى ان اسمع ساندرز يروى تلك القصة عن مسالة باسكول . واعلم اننى سمعتها من قبل ، بيد انى لم اصدقها تمام التصديق ، لانها كانت فصلا من قصة اخرى امعن اسرافا فى الخيال ، ولم اجد ثمة

ما يدعونى الى تصديقها ، او بعبارة ادق ، كان مسوغ تصديقها يسيرا جدا على كل حال . اما الآن فاصبح عندى لذلك مسوغان يسيران

وبلغنا الفندق ، وقال رذرفورد وهو يفتح باب جناحه الخاص :

ـ الواقع ان كونواى لم يمت ، او على الاقل لم يكن قد مات بعد ، منذ اشهر قليلة

ـ اواثق انت من ذلك ؟ وكيف عرفت هذا ؟

ـ لاننى كنت ارافقه فى سفره من شنغهاى الى هونولولو على ظهر سفينة يابانية فى شهر نوفمبر الماضى . فقد كنت اقضى الخريف فى الصين ، اقضى هناك عطلتى ، وتوجهت لزيارة صديق فى هنكاو ، وعدت بقطار بكين السريع . وفى ذلك القطار اتيحت لى فرصة الحديث مع رئيسة راهبات جذابة الشخصية الى اقصى حد ، تنتمى الى احدى هيئات الرهبنة الفرنسية الخيرية ، وكانت مسافرة الى شونج كنج حيث ديرها .

ولاننى اعرف القليل من الفرنسية ، فقد طاب لها فيما يبدو ان تتحدث معى عن عملها واحوالها عموما . وفى خلال حديثها عن مستشفى الارسالية فى شونج كنج ، اشارت الى حالة حمى وردت اليه قبل ذلك ببضعة اسابيع . وكان الظن ان المريض لا بد ان يكون اوروبيا ، بالرغم من انه لم يكن فى حالة تسمح له بالادلاء باى بيانات عن نفسه . وكذلك لم يكن يحمل اوراقا ، وكان يرتدى الزى الوطنى ، ومن احقر نوع . وعندما تولت الراهبات العناية به كان مريضا مرضا بالغا حقيقة ، وكان يتكلم الصينية بطلاقة ، وكانت لغته الفرنسية بديعة . واكدت لى رفيقة سفرى انه قبل ان يتحقق من قومية الراهبات ، وجه اليهن الخطاب بلغة انجليزية سليمة وتمهل رذرفورد قليلا ، ثم قال :

ـ فلما بلغ القطار محطة شونج كينج ، ودعتنى الرئيسة الام ، بلهجة تنم عن مودة عظيمة ، لزيارة ديرها ان اتفق لى فى يوم من الايام ان اكون فى تلك المنطقة ، وكان ذلك يبدو بطبيعة الحال امرا غير محتمل الوقوع . ولكن حدث فعلا اننى عدت الى شونج كينج فى مدى ساعات قليلة ، لان القطار تعطل على بعد ميل او ميلين من تلك البلدة ، وبصعوبة شديدة عاد بنا الى المحطة ، حيث علمنا ان قاطرة المعونة لا يمكن ان تصل قبل اثنتى عشرة ساعة ، ومن ثم كان امامى نصف يوم اقضيه فى شونج كينج ، فحفزنى ذلك على أن البى دعوة السيدة الصالحة ، واذهب لزيارة الارسالية

« واقدمت على ذلك ، فظفرت بترحيب ودى ، وان كان طبعا مشوبا بشىء من الاستغراب . وقبل ان تنقضى على وجودى هناك ساعة كاملة ، وجدتهم قد اعدوا لى مائدة ، جلس اليها معى طبيب صينى مسيحى فى مقتبل العمر . وبعد الفراغ من الطعام ، قام ذلك الطبيب مع الرئيسة الام باصطحابى لمشاهدة المستشفى والارسالية ، فيما يبدو ، فخورة جدا بذلك المستشفى . فوجدت المكان نظيفا نظافة لا تشوبها شائبة . وبدا لى انه يدار عن خبرة وكفاية عظيمتين

« وكنت قد نسيت امر ذلك المريض الغامض الذى يتحدث الانجليزية بطلاقة ، الى ان ذكرتنى الرئيسة الام اننا على وشك ان نبلغ موضعه . واقترحت على ان اوجه اليه الخطاب بالانجليزية ، ولهذا بادرته قائلا :

ـ طاب يومك ..

فنظر الى الرجل بغتة ، ثم اجابنى قائلا :

ـ طاب يومك

« وكان صحيحا ان لهجته تنم عن ثقافة . بيد ان الوقت لم ينفسح امامى كى اعجب من ذلك ، لاننى كنت قد عرفته على الفور ، بالرغم

من لحيته ، وسحنته التى تغيرت كل التغير ، وبالرغم من اننا لم تكن قد التقينا منذ زمن بعيد .. فقد كان هو كونواى !

« وناديته باسمه ، ثم نطقت باسمى ، ومع انه نظر الى دون ان تبدو عليه اى علامة تدل على معرفته اياى ، فقد كنت واثقا اننى لم اخطىء . وبطبيعة الحال كان الطبيب والرئيسة الام فى غاية الاهتمام . فقلت لهما اننى اعرف الرجل ، وانه انجليزى ، وصديق لى . واذا كان لم يعرفنى ، فذلك لانه لا بد ان يكون قد فقد ذاكرته .. فقالا ان ذلك هو ما حدث فعلا ، وارتسمت عليهما امارات الدهشة

« وجلسنا نحن الثلاثة فتدارسنا المسألة دراسة طويلة ، ولم يستطيعا ان يدليا باى فكرة عن الكيفية التى تمكن بها كونواى من الوصول الى شونج كنج ، فى الحالة التى كان عليها

« واختصر لك القصة ، فاقول اننى قضيت هناك اكثر من اسبوعين ، على امل ان استطيع بوسيلة من الوسائل ان استدرجه الى تذكر الامور الماضية ، فلم يكتب لى النجاح ، بيد نه استرد صحته البدنية ، وتحدثنا احاديث طويلة

« وعندما اخبرته فى صراحة من اكون ، ومن يكون هو ، ابدى اذعانا ولم يجادل فى ذلك ، ووافقنى بسهولة عندما اقترحت عليه وجوب العودة معى الى الوطن . وبمجرد ان توافرت لدى الوسائل ، حددت موعد رحيلنا

« وكان خروجنا من الصين بالطريق العادية ، فرحلنا راكبين نهر يانج تسى الى نانكنج ، ثم ركبنا القطار الى شنغهاى ، حيث استطعنا ان نوفق الى ركوب سفينة مقلعة الى امريكا فى الليلة نفسها »

وتوقف رذرفورد برهة يسترجع ذكرياته ، ثم استطرد :

— ويمكنك أن تتصور كيف استعدنا صلات صداقتنا القديمة على ظهر السفينة ، فقد اخبرته بكل ما تيسر لى ان اعرفه عن نفسه ، وكان يصغى بكل انتباه ، وفى الوقت نفسه كان يذكر كل شىء بغاية الوضوح منذ وصوله الى شونج كينج . وقد يهمك ان تعلم انه لم ينس اللغات التى يعرفها ، فقد اخبرنى مثلا انه يعتقد انه كان ذا صلة بالهند على نحو ما ، لانه يتكلم اللغة الهندوستانية

« وفى يوكوهاما اكتظت السفينة ، وكان من بين الركاب الجدد عازف البيانو المشهور سيفكنج . وبعد ان غادرنا اليابان بليال قليلة اغرى سيفكنج على ان يعزف على ظهر السفينة فى حفلة بيانو ساهرة . وتوجهت انا وكونواى لنسمعه . وقد اجاد العزف بطبيعة الحال .. وادى شيئا من الحان برامز ، وشيئا كثيرا من الحان شوبان

« ورمقت كونواى مرّة او مرتين ، فادركت انه كان يستمتع بكل ما يسمع . وبدا لى ذلك طبيعيا جدا ، بالنظر الى ماضيه الموسيقى ، واخيرا ختم سيفكنج البرنامج وتحرك فى اتجاه الباب ، وعندئذ حدث شىء غريب ، اذ توجه كونواى الى البيانو ، وشرع يعزف مقطوعة سريعة فياضة الحيوية لم اكن اعرفها ، بيد انها اعادت سيفكنج على اعقابه وقد ثار اهتمامه الى الدرجة القصوى ، ليسأل عن المقطوعة وماذا تكون

« ولبث كونواى برهة طويلة فى صمت غريب ، ثم لم يستطع الا ان يجيب قائلا انه لا يدرى ، فاذا سيفكنج يهتف ان ذلك غير معقول ، ثم يلح فى ضرورة معرفة المقطوعة . فبذل عندئذ كونواى ما بدالى مجهودا جبارا لاستعادة ذاكرته ، واخيرا قال انها دراسة لشوبان »

فاعترض عليه سيفكنج قائلا :

— يا عزيزى ، اننى اعرف كل اعمال شوبان ، وفى مقدورى ان أؤكد لك انه لم يكتب مطلقا تلك المقطوعة التى عزفتها الآن . اجل كان حريا ان يفعل ، لانها من طراز اسلوبه تماما ، ولكنه لم يكتبها ، وانا اتحداك ان تطلعنى على الاصل فى اى طبعة من طبعاته

فكان جواب كونواى :

— اجل ، تذكرت الآن .. هذه المقطوعة لم تطبع مطلقا . ولكنى اعرفها شخصيا لاننى قابلت رجلا كان يوما فى عداد تلاميذ شوبان .. وهاك مقطوعة لم تنشر تعلمتها منه

وتطلع رذرفورد نحوى ، ليتاكد من متابعتى لما يقول ، فلما اطمأن الى ذلك ، استطرد قائلا :

— لا ادرى ان كنت موسيقيا ام لا ، ولكن حتى لو لم تكن موسيقيا ، فانت لا شك تستطيع ان تتصور جانبا من شدة اهتمام سيفكنج ، واهتمامى انا كذلك ، حينما انطلق كونواى يعزف ، وتستطيع ان تتحقق مقدار اللغز الغامض فى الموضوع ، حين اذكرك ان شوبان توفى فى سنة ١٨٤٩

« ان المسالة كلها من المستحيل ان تجد لها تفسيرا . واكد لى سيفكنج انه لو اتيح لهاتين المقطوعتين الموسيقيتين ان ينتشرا ، فسيبادر كل عازف بيانو الى تعلمها . وبعد مناقشة طويلة لم نتمكن من الوصول الى حل ، لان كونواى اصر على روايته ، فلما رايت التعب قد اخذ يدب اليه ، اسرعت فى لهفة فخرجت به من الزحام ، ومضيت به الى فراشه »

ونظر رذرفورد الى ساعته ، ثم طمأننى بان الوقت متسع امامى لادراك قطارى ، لان قصته فى حكم المنتهية ، ثم اردف :

— وفى الليلة التالية للحفلة الموسيقية استعاد كونواى ذاكرته ، فقد

آوينا الى الفراش ، وكنت مستلقيا يقظانا ، حينما دخل قمرتى ، وابلغنى ذلك . وكان وجهه متصلبا فى صورة لا استطيع الا ان اصفها بالكآبة البالغة .. كآبة شاملة ، فيها شىء كثير من الترفع والاستعلاء

« واطال الجلوس على حافة فراشى ، وتركت له الفرصة الكاملة كى يخبرنى بما يشاء بطريقته الخاصة . وبعد برهة نهضت فارتديت ثيابى ، واقنعته ان يقتدى بى . ثم جعلنا نتمشى جيئة وذهابا على ظهر السفينة . وتركت كونواى فى بادىء الامر يمضى على هواه دون ان اوجه اليه شيئا من الاسئلة ، وبلغ الوقت الضحى ، وقد اشتدت حرارة الشمس حين فرغ من روايته

« وكان يشعر بشقاء عظيم ، ولم يكن فى استطاعته ان ينام ، ولهذا رحنا نتكلم بغير انقطاع تقريبا . وقرب منتصف الليلة التالية ، كانت السفينة حرية ان تصل الى هونولولو .. وكنا قد احتسينا كؤوسا فى قمرتى فى الليلة السابقة ، فتركنى فى نحو الساعة العاشرة ، ولم أره بعد ذلك ابدا »

فتمثلت مخيلتى صورة انتحار هادىء متئد ، وصحت : « انك لا تعنى . . . »

فضحك رذرفورد ، ثم قال :

— كلا ، لم يكن من ذلك الطراز . كل ماهنالك انه زاغ منى . وكان من السهل على اى شخص ان ينزل الى الشاطىء . ولكن لا بد انه وجد عناء فى الافلات من الاشخاص الذين كلفتهم باقتفاء اثره للبحث عنه ، كما هو طبيعى ان افعل . وقد علمت بعد ذلك انه تمكن من الانضمام الى هيئة البحارة فى سفينة من سفن الموز كانت مبحرة جنوبا الى جزائر فيجى

— ولكن كيف استطعت ان تعرف ذلك ؟

— بطريقة مباشرة للغاية ، فقد ارسل الى خطابا بعد ذلك بثلاثة شهور ، ارسله من بانجكوك ، وقد طواه على حوالة مالية بقيمة النفقات التى تكبدتها بسببه . وشكرنى ، وذكر لى انه على خير ما يرام من الصحة . وانه كذلك على وشك ان يبحر فى رحلة طويلة الى الشمال الغربى .. وكان هذا هو كل ما جاء فى خطابه

— والى اين كان يريد ان يرحل ؟ .

— اجل .. ان ما ذكره كلام غامض كل الغموض ، أليس كذلك ؟ فما اكثر الأماكن التى تقع الى الشمال الغربى من بانجكوك

وتمهل رذرفورد ، فلما طال سكوته ، سألته :

— وبعد ؟ هلا اخبرتنى كيف كان قد وصل الى شونج كينج ، احسبه قد اخبرك بذلك كله وانتما على ظهر السفينة فى تلك الليلة

— لقد اخبرنى بشىء منها ، ولكن لا بد اولا ان اقول انها كانت قصة طويلة شيئا ما ، بحيث ان الوقت لا يمكن ان يتسع قبل انطلاقك الى قطارك ، لاحاطتك بمجمل لها ، ولكن على كل حال امامنا وسيلة اوفى بالغرض من وسيلة الكلام . ذلك ان قصة كونواى راقت لى الى درجة عظيمة ، فأخذت فى تدوين مذكرات يسيرة عنها بعد محادثاتنا المتعددة على ظهر السفينة ، كى لا انسى ما فيها من التفاصيل . ورايت فيما بعد ، تحت اغراء عناصرها ، ان اقدم على تهذيب تلك القصاصات وادماجها فى سياق روائى واحد . ولست اعنى بذلك اننى اخترعت شيئا او ابتدعته ، او غيرت فيه ، فقد كان فى الرواية التى سردها على مسامعى ما فيه الكفاية من عناصر التشويق

ونهض الى حقيبة أوراقه ، فاستخرج منها حزمة من صحائف

مكتوبة على الآلة الكاتبة ، قدمها الى قائلا :

— والآن هذه هى القصة على كل حال ، ولك ان تصنع بها ما تشاء ، وان تخرج منها بما تشاء ، ولكن وافنى برأيك فيها

فتناولت المخطوط ، واخذته معى فى سفرى ، حيث قرات الجانب الاكبر منه فى قطار « أوستند » السريع

***

تحرج الموقف فى باسكول خلال الاسبوع الثالث من شهر مايو ، وفى العشرين منه ، وصلت طائرات السلاح الجوى مدينة بيشاوار ، بناء على ترتيب سابق ، لتجلى السكان البيض الذين يبلغ عددهم حوالى الثمانين . وقدنقل معظمهم فى سلام عبر الجبال فى ناقلات الجنود . وقد استخدمت فى تلك الحركة انواع اخرى من الطائرات، من بينها طائرة خاصة ، اعارنا اياها مهراجا شاندابور . وفى العاشرة صباحا ركب هذه الطائرة اربعة هم : الآنسة برنكلاو المبشرة بالارسالية الشرقية ، وهنرى برنارد وهو مواطن من الولايات الامريكية ، وهيو كونواى قنصل حكومة جلالة ملك بريطانيا ، والكابتن تشارلز مالينسون نائب قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية

وكان كونواى فى السابعة



والثلاثين من عمره ، وكان قد امضى فى باسكول سنتين ، وقد اختتم مرحلة من مراحل حياته ، ينقل بعدها فى مدى بضعة اسابيع الى جهة اخرى : طوكيو او طهران ، مانيلا او مسقط ، فمن يعملون فى مهنته لا يعلمون مطلقا ماذا يمكن ان يقع لهم . كان قد امضى عشر سنوات فى الخدمة القنصلية ، وكان يعلم انه لا يصلح للمناصب الرئيسية ، لانه كان يفضل الوظائف التى تقل فيها التكاليف الرسمية ، ويزيد نصيبها من الجمال والشاعرية . وربما خيل الى بعض الناس انه لا يحسن اللعب بأوراقه ، ولكنه فى الواقع كان يوفق بين عمله وذوقه الخاص ، وبذلك استطاع ان يحيا عشر سنوات منوعة الاحداث ، طاب له ان يستمتع بما جرى فيها . .

وكان طويل القامة ، برنزى اللون ، بنى الشعر قصيره ، وعيناه عميقة الزرقة ، وعلى وجهه تبدو الصرامة وسيماء التفكير ، فاذا ضحك كان بالاطفال اشبه . وكانت تلازم وجهه حركة عصبية طفيفة تصدر عن عضلة من جهة بالقرب من العين اليسرى ، وكانت هذه الحركة تبدو واضحة للعيان حين يستغرقه العمل الشاق . . ولما كان قد قضى طوال يوم الترحيل ، والليلة السابقة عليه فى حزم الاوراق والحقائب واعدام الاوراق والوثائق ، فان تلك اللازمة العصبية كانت واضحة وهو يرتقى الطائرة . وكان التعب قد انهكه ، فاسعده ان يحتل مكانه فى طائرة المهراجا الفخمة المريحة ، بدلا من احدى ناقلات الجنود المزدحمة ، فتمدد فى كرسيه المريح ، بينما اخذت الطائرة تحلق فى الفضاء

وبعد نحو ساعة من تحليق الطائرة ، قال مالينسون انه يظن ان الطيار قد حاد عن الطريق المرسوم . وكان مالينسون يجلس الى الامام مباشرة ، وكان شابا فى اواسط العقد الثالث من عمره ، متورد الوجنات ، ذكى دون المعية ذهنية . وكان اخفاقه فى احد الامتحانات هو السبب فى ارساله الى باسكول ، حيث قضى كونواى ستة شهور فى صحبته ، انتهت بالميل الى محبته

وفتح كونواى عينين اطبقهما النعاس ، واجاب مالينسون بأن الطيار هو ادرى الناس بالطريق الذى تسلكه الطائرة

وما ان اغفى كونواى لمدة نصف ساعة اخرى حتى ايقظه صوت مالينسون وهو يقول :

ـ اسمع يا كونواى ، لقد كنت اظن ان فينز هو الطيار المعين لهذه الطائرة

ـ حسنا ، أو ليس فينز هو الذى يقود الطائرة ؟

ـ كلا ، لقد ادار الرجل وجهه منذ لحظة ، وانا اقسم انه ليس فينز على الاطلاق

ـ من الصعب ان تتحقق بوضوح خلال الزجاج الذى يفصلك عن مقعد القيادة

ـ انى اعرف وجه فينز تماما ، واستطيع ان اميزه فى اى مكان

ـ لا بد ان يكون شخصا آخر ، وانا شخصيا لا ارى فى ذلك اى ضرب من ضروب الاهمية

ـ ولكن فينز اكد لى انه سوف يقود الطائرة !

ـ ربما غيروا رايهم فى اللحظات الاخيرة ، واسندوا اليه قيادة طائرة اخرى

ـ حسنا ، ومن يكون هذا الرجل اذن ؟

ـ من اين لى ان اعرف يا عزيزى ، اتظن اننى اميز وجه كل ضابط من ضباط السلاح الجوى ؟

ـ اننى اعرف كثيرا منهم على اية حال ، ولكنى لم ار وجه هذا الرجل من قبل

ـ اذن فهو من الاقلية التى لا تعرفها منهم

وضحك كونواى ، ثم اضاف قائلا :

ـ عندما نصل الى بيشاور بعد لحظات ، تستطيع ان تتعرف اليه ، وتسأله عن اسمه وتاريخ حياته

ـ المسألة اننا على هذا المعدل فى الطيران لن نصل الى بيشاور على الاطلاق ، فان الرجل قد حاد عن الطريق المؤدى اليها ، ولست مندهشا ، فلعل الارتفاع الشاهق قد ادى به الى الخطأ فى تحديد اتجاه الطائرة

ولم يجب كونواى ، ولكن هزة مألوفة وقعت بعد برهة قصيرة ، انبأته بأن الطائرة فى طريق الهبوط . وكان كونواى على وشك ان يؤنب مالينسون على ظنونه الخاطئة ، لولا ان الفتى قفز فجأة من مقعده ، فارتطم رأسه بسقف الطائرة ، فأيقظ ذلك برنارد الامريكى الذى كان يغط فى النوم فى الجانب الآخر من الممر الضيق ، ثم اتجه نحو النافذة ، ولم يلبث ان صاح :

ـ ياالهى ... انظر هناك ؟ !

ونظر كونواى من نافذة الطائرة ، فرأى منظرا لم يكن يتوقعه على الاطلاق ، فبدلا من حظائر المطار وابنيته الانيقة ، رأى صحراء شاسعة بنية اللون وبالرغم من ان الطائرة كانت تهبط هبوطا سريعا ، الا انها كانت لا تزال على ارتفاع غير مألوف فى الطيران العادى ، وكانت هناك سلاسل من التلال المنتظمة تلوح سفوحها من بعد . انه مشهد نموذجى من مشاهد الحدود ، وان كان كونواى لم تقع عينه من قبل على تلك المشاهد من مثل هذا الارتفاع . وكان ادعى لاثارة عجبه ان المنظر لم يكن مما يمكن تصوره على حدود بيشاور ، فعلق تمائلا :

ـ يبدو انك على حق .. لقد ضل الرجل طريقه فعلا

وكانت الطائرة تهبط بسرعة فائقة ، وكلما اقتربت من الارض اشتدت سخونة الهواء ، وترنحت واهتزت فى المطبات الهوائية ، بحيث تحتم على الركاب الاربعة ان يتشبثوا بمقاعدهم .. وقال الامريكى فى خشونة :

ـ يبدو انه يريد الهبوط

فاجابه مالينسون صالحا :

ـ انه لن يستطيع ، ولو فعل لكان محقق الجنون ، فانه سيرتطم و ...

ولكن الطيار هبط بالفعل ، وبمهارة فنية ارسى الطائرة على بقعة من الارض الفضاء الى جوار احد الوديان . ولكن الذى حدث عقب ذلك كان يدعو الى الحيرة الشديدة ، فقد احاطت بالطائرة جماعة من المعممين ذوى اللحى المرسلة ، من رجال القبائل، الذين هرولوا اليها من شتى الاتجاهات ، ومنعوا اى فرد من النزول ، اللهم الا الطيار ، الذى هبط الى الارض ، واخذ يتحدث اليهم فى انفعال بالغ ، وبدا لركاب الطائرة ، ان قائدهم ليس انجليزيا على الاطلاق . واخذ بعض الرجال يحضرون صفائح البنزين من مخزن قريب ، ويصبونها فى خزان الطائرة . وتصايح الركاب الاربعة المسجونين ، بيد ان صيحاتهم قوبلت بالسكون التام . وحاول كونواى التفاهم مع الرجال بلغتهم التى كان يعرف طرفا منها ، دون جدوى ، اما رد الطيار الوحيد على ما وجه اليه من كلام الركاب ، فكان التلويح لهم تلويحا ذا مغزى بمسدسه . وارسلت شمس الصحراء اشعتها الحامية الى ظهر الطائرة ، فكاد الركاب الاربعة ان يختنقوا من شدة الحرارة ، ولم يلبثوا ان امتثلوا للامر الواقع ، فقد كانوا لا يملكون حولا ولا طولا ، لانهم كانوا عزلا من السلاح ، تنفيذا لتعليمات الترحيل

وما ان ملئت خزانات الطائرة بالوقود ، واحكم اغلاقها ، حتى اعطيت للركاب صفيحة بنزين مملوءة بالماء الفاتر من احدى النوافذ . ولم يبد العداء على وجوه اولئك الرجال ، ولكنهم لم يجيبوا على اى سؤال . وبعد برهة وجيزة ، صعد الطيار الى مقعد القيادة ، واستانف الطيران . وكان تحليق الطائرة من مرساها الضيق المحدود ، وبذلك الثقل الاضافى من الوقود ، ادل على المهارة من عملية الهبوط . وارتفعت الطائرة شاهقة فى السماء ، ثم اتجهت نحو

الشرق كما لو كانت داخلة فى سباق . وكان الوقت حينئذ قرب منتصف العصر . .

انها لمسألة خارقة للمألوف ، محيرة للعقول ! . .

واختمرت فى ذهن مالينسون نظرية انهم خطفوا بواسطة احدى العصابات طلبا للفدية ، وثارت مناقشة حول احتمالات ذلك الفرض ، بين مالينسون وبرنارد ، أما كونواى فكان يتحدث قليلا ، وان كان يجيب على ما يوجه اليه من الاسئلة ، لانه شغل نفسه بتصرف عملى له قيمته ، ذلك انه اخذ يجمع قطع الورق التى تحويها جيوب زملائه، ويكتب عليها رسائل بشتى اللغات طالبا النجدة ، ويلقى تلك الرسائل من نافذة الطائرة . لقد كان ذلك عملا مناسبا ، وان كان الامل فى جدواه ضعيفا . .

وظلت الطائرة بعد الظهر تحلق خلال ذلك الضباب الخفيف الذى تتميز به طبقات الجو العليا ، حتى ليصعب رؤية شىء من طبيعة الارض تحتها . وبين فترة واخرى كان الحجاب الذى يخفى الارض يتمزق للحظة وجيزة ، ليكشف عن قمة جبل ، او مجرى نهر غير معروف . ولقد استطاعوا ان يدرسوا اتجاه الطائرة ، على نحو غير دقيق ، بالنظر الى موقع الشمس . وكانت الشمس لا تزال الى الشرق مع ميل فى بعض الاحيان نحو الشمال . ويبدو ان الطيران الطويل قد استنفد قدرا كبيرا من الوقود ، وان كان ذلك المقدار يتوقف على عوامل غير محددة . ولم يكن كونواى خبيرا بفن الطيران ، غير انه ادرك ان الطيار — كائنا من كان — لا بد وان يكون قائدا ماهرا ، يدل على ذلك هبوطه فى الوادى الجبلى . كما ادرك كذلك ان رفاقه فى الطائرة لا بد وان يكون لديهم من الاسباب الشخصية ما يدعو الى القلق من هذه الرحلة الغامضة ، والتلهف للعودة الى اوطانهم ، اكثر مما لديه . فان مالينسون كان مرتبطا بخطيبة له فى انجلترا ، ولعل برنارد ان يكون متزوجا ايضا ، على ان احدا فى باسكول لم يكن يعرف عنه كثيرا . لقد كان رجلا ضخما مكتنز اللحم ، له

تجاعيد من اثر المرح ، لم تستطع ان تاتى عليها تلك الجيوب التشاؤمية . اما الآنسة برنكلاو ، فكان لها عملها الخاص بالارسالية . ولقد ظلت شبه صامتة طوال الرحلة ، ولم تبد اية شكوى ، وان ابدت بضع ملاحظات قصيرة . ولقد كان مالينسون اشد الركاب قلقا واكثرهم حركة . وكان قلقه يشتد كلما مضى بهم الوقت ، وهم لا يزالون محمولين على اجنحة الهواء . . ولم يلبث مالينسون ان صاح فى غضب :

— اسمع . . . هل سنظل هكذا مكتوفى الايدى ، بينما هذا الطيار المجنون يفعل بنا ما يريد ؟

فأجاب كونواى فى هدوء :

— لا شىء بالمرة ، سوى انه مسلح ونحن عزل من السلاح ، كما ان احدا منا لا يستطيع ، اذا تغلبنا على هذا الطيار ، ان يهبط بالطائرة الى الارض

—هذا ليس بالشىء العسير . . انك تستطيع يا كونواى — اذا اردت — ان تهبط بالطائرة

— يا عزيزى مالينسون ، لماذا تطلب منى دائما ان اقوم بالمعجزات ؟

— حسنا ، ان الموقف على اية حال اشد من ان تحتمله اعصابى ، يجب ان نفعل اى شىء لنضطر هذا الطيار الى الخروج الينا

— وماذا تقترح ان نفعل ؟

فزاد هياج مالينسون وصاح :

— اننا ثلاثة رجال ضد رجل واحد فقط ، هل سنظل هكذا نحملق فى ظهره ؟ ينبغى على الاقل ان نجبره على ان يخبرنا اى لعبة هذه التى يلعبها

— حسنا ، سوف نرى

وتقدم كونواى بضع خطوات الى الامام ، نحو الحاجز الذى يفصل

بين قمرة الركاب وحجرة القيادة ، وكان هناك لوح زجاجى مساحته ست بوصات ينفرج بازاحته الى الجانبين . ونقر كونواى باصابعه على هذا الحاجز ، فكانت الاستجابة على النحو الذى توقعه : لقد ازاح الطيار الزجاج الى الجانبين ، واطلت من الفتحة فوهة مسدس .. لا كلام ، وانما ذلك فحسب . فتراجع كونواى الى الخلف ، واغلق الطيار الفتحة الزجاجية

وكان مالينسون يرقب ما حدث ، فلم يقنع به ، وانما قال :

ــ لا اظن انه يجرؤ على اطلاق الرصاص

فوافقه كونواى ، وقال :

ــ ربما ، ولكنى افضل ان اتركك هذه المرة لتتأكد من هذا الامر بنفسك

ــ حسنا ، اعتقد انه يجب ان نقاتل على نحو ما ، قبل ان نستسلم هكذا ...

وكان كونواى يعطف على مالينسون ، ولكنه قال :

ــ ان شن معركة خاسرة لا يعتبر عملا حكيما ، ولست من الابطال الذين يدخلون فى قتال خاسر

فتدخل برنارد قائلا فى حماس :

ــ هذا راى سديد يا سيدى ، اذا اوقعك شخص ما فى فخ ، فاجدر بك ان تتقبل الواقع فى مرح .. اما عن نفسى ، فقد عولت على الاستمتاع بالحياة ، طالما انا على قيد الحياة ، وسأدخن سيجارا ، وارجو الا تظنوا ان هذا الخطر الاضافى ــ يقصد التدخين ــ مما يغير كثيرا من سوء الموقف

ــ انه لا يعنينى كثيرا ، ولكنه قد يقلق الآنسة برنكلاو

فاسرع برنارد يعتذر اليها قائلا :

ــ معذرة يا سيدتى ، هل يضايقك كثيرا ان ادخن ؟

فاجابت فى سماحة تامة :

ــ كلا على الاطلاق ، اننى احب رائحة السيجار

وكان انفعال مالينسون قد خف قليلا ، ولكى يعرب له كونواى عن عطفه ، قدم اليه سيجارة ، على انه لم يشعل واحدة لنفسه ، وقال فى رقة :

ــ اننى اقدر شعورك جيدا ، انه موقف حرج ، ويزيده سوءا اننا لا نملك عمل شىء لتلافيه

ولم يستطع ان يمنع نفسه من ان يضيف فى سره : « وهذا احسن من جهة اخرى » .. فقد كان لا يزال مكدودا الى درجة كبيرة ، ولما كان لا يجد امامه ما يفعله ، فقد اضطجع فى مقعده واستسلم للنوم . وما ان استيقظ بعد فترة من الوقت حتى اغتبط بأن وجد الآخرين قد ناموا كذلك ، على الرغم من متاعبهم النفسية المختلفة . وكانت الآنسة برنكلاو تجلس منتصبة فى كرسيها ، وقد اغلقت عينيها . ومال مالينسون فى مقعده الى الامام ، وقد وضع ذقنه فى راحة يده ؛ اما الامريكى فقد وصل الى درجة الغطيط . وسر كونواى لهذا المنظر ، وقال لنفسه : « لقد فعلوا جميعا خير ما يجب فعله ، فلا مبرر لاجهاد النفس بالصياح »

واستدار كونواى نحو النافذة ، وتطلع منها ، فاذا السماء حوله قد صفت تماما ، وكشف له ضوء ما بعد الظهيرة عن منظر تعلقت له على الفور انفاسه حتى شهق . فلقد رأى على آخر مرمى البصر سلاسل فوق سلاسل من القمم الثلجية الشاهقة .

وكانت تلك السلاسل تحيط بدائرة ضخمة عريضة ، تنكشف تدريجيا نحو الغرب فى افق رائع متوهج يبهر الانفاس ، والطائرة تقطع السماء دون توقف ، وكأنها تقصد قمة بيضاء بعيدة هى جزء من السماء نفسها

ولم يكن كونواى بالشخص الذى ينفعل بسهولة لدى رؤيته المناظر ، والاصل عنده انه لا يهتم بالمناظر ، ولكن ذلك المنظر النادر الغريب الذى شاهده خلال نافذة الطائرة كان شيئا لم يألفه فى حياته .. لقد كان يحوى عناصر من القوة والندرة والوحشية ، هزت اعماقه هزا عنيفا .. وما ان افاق من استغراقه حتى وجد مالينسون قد استيقظ من نومه

كان المفروض فى كونواى ان يترك الآخرين يستيقظون من تلقاء انفسهم ، والا يستجيب الا قليلا لصيحات تعجبهم . ومع هذا لم يتردد ، عندما التمس برنارد منه رايه ، ان يبديه عن طيب خاطر

وكان رايه فيما قال انهم مازالوا على الارجح فى بلاد الهند ، وانهم قد ظلوا طائرين الى جهة الشرق جملة ساعات على ارتفاع اكبر بكثير من ان يسمح بالرؤية . ولكن من المحتمل ان اتجاه السير كان على طول واد من وديان الانهار ... ثم استطرد :

ــ كم كنت اود لو انى لم اكن مضطرا للاعتماد على الذاكرة ، ولكن احساسى الخاص ان وادى الاندوس الاعلى يطابق هذه الاوصاف خير مطابقة . وعلى هذا الاساس ينتهى الطيران بنا فى بقاع العالم منظرا .. وكما ترون مثل هذه المدة الى بقعة من ابدع







بأنفسكم ، تتميز هذه البقعة بهذه الصفة

فقاطعه برنارد قائلا :

— لقد تعرفت على المكان الذى نحن فيه اذن ؟

— كلا . . . انى لم اكن فى يوم من الايام فى اى موضع يقارب هذه البقعة من قبل ، ولكنى لن ادهش اذا كان هـــذا الجبل هو الجبل المسمى نانجا باربات ، فمن حيث التكوين والشكل العام يبدو مطابقا لكل ما بلغنى عنه

— هل انت من هواة تسلق الجبال ؟

— كنت حريصا على ذلك فى حداثتى ، ولكنى بطبيعـــة الحال لم امارس الا تسلق جبال سويسرا المألوف

فتدخل مالينسون فى الحديث قائلا :

— اظن الانسب ان نناقش الى اين يذهب بنا ، وكم اتمنى على الله لو ان احدا استطاع ان يخبرنا

فأجابه برنارد قائلا :

— حسنا ، يبدو لى كما لو كنا متجهين الى ذلك الحاجز الصخرى القائم هناك . الست ترى هذا الراى ياكونواى ؟ واحسبك تغفر لى اننى اناديك على هذا النحو ، فما دمنا مقدمين على المشاركة معا فى مغامرة صغيرة ، فمن السخف ان نقف عند حدود الرسميات

فوافقه كونواى واضاف قائلا :

— بالتأكيد . . وانا اظن ان الحاجز الصخرى هو كراكوران ، وبه جملة ممرات : وان كان صاحبنا ينوى ان يجتاز هذه الجبال

فصاح مالينسون :

— اتقول صاحبنا ؟ انك تعنى طبعـــا مجنوننا ! واعترف انه آن الاوان ان نتخلى عن نظرية الاختطاف ، فنحن قد تجاوزنا بكثير اقليم الحدود فى هذه الساعة . والتفسير الوحيد الذى استطيع ان افكر

فيه هو ان هذا الشخص مخبول خولط فى عقله . فهل يمـــكن لاى نســان — اللهم الا اذا كان مخبولا — ان يطير الى منطقة من هذا القبيل؟

فرد عليه برنارد قائلا :

— مبلغ علمى انه ما من انسان — اللهم الا اذا كان طيارا بارعا غاية البراعة — كان يستطيع ان يقدم على ذلك . انى لم اكن فى يوم من الايام متفوقا فى الجغرافيا ، ولكنى ادرك ان هـــذه الجبال مشهورة بانها اعلى جبال فى العالم ، فاذا كان الامر كذلك ، فهذا الطيران عبر هذه الجبال استعراض للبراعة من الطراز الاول

فقالت الآنسة برنكلاو على غير انتظار :

— وذلك ايضا بمشيئة الرب

ولم يتبرع كونواى بابداء رايه . اذ فى حين كان يرقب ويتفكر ، حدث تحول غريب ، اذ تغير الضوء فوق الجبل كله فمال الى الزرقة ، اما السفوح السفلى فازدادت دكنتها فباتت بنفسجية . وشعر فى اعماقه بشىء ابعـــد غورا من تباعده المألوف يستيقظ فيه ، شعر بتوتر حاد ينم عن التوقع ، وعندئذ قال :

— انت على حق يابرنارد . فهذه المسألة تزداد غرابة لحظة بعد اخرى ، واستلفاتا للنظر

فصاح مالينسون مصرا على رايه قائلا :

— استرعاء للنظر او غير ذلك . انا على كل حال لا اشعر بميل الى اقتراح التصويت على الشكر بخصوصها ، فنحن لم نطلب أن يؤتى بنا الى هنا ، أيا كانت هذه البقعة . ولا ارى ان براعة هـــذا الشخص الخارقة فى الطيران تقلل من جسامة العدوان . وهبه ابرع الطيارين ، فهو لا ينفك مخبولا . وقد سمعت ذات مرة من طيار اصابه مس من الخبال وهو فى عنان السماء ، اما هذا الشخص فلا بد انه كان مجنونا من بداية الامر ، وهذه وجهة نظرى ياكونواى

وظل كونواى ساكتا فى اول الامر ، ولكن لما الح عليه مالينسون ان يبدى رايه ، قال :

ـ ان صح هذا فجنونه منتظم جدا ، ولا تنس الهبوط للتموين بالوقود ، ولا تنس ايضا ان هذه الطائرة هى الوحيدة التى كانت قادرة على التحليق الى مثل هذا الارتفاع

ـ هذا لا ينهض دليلا على انه ليس مجنونا ، فلعله بلغ من الجنون المبلغ الذى ينظم به كل شيء سلفا

فلم يشا كونواى ان يطيل المناقشة ، وقال :

ـ اجل ، بالطبع هذا ممكن

ووجد نفسه يفكر فى ان هذه المجموعة كان من الممكن ان تكون اسوا تكوينا مما هى بكثير ، وكل خطب مالينسون فى ميله الى اثارة المتاعب والقلق ، وربما كان هذا من تاثير الارتفاع

وبينما هو يتفكر ، خيم الغسق ، ثم ظهر البدر كاملا ، واشعته نداعب القمم على التوالى ، الى ان توهج خط الافق على طول مداه ، وانعكس على السماء الداكنة الزرقاء

واخذ الهواء يمعن فى البرودة ، وثارت الرياح فجعلت تهز الطائرة هزا مقلقا للراحة . فنجم عن هذه المنغصات الجديدة هبوط فى روح ركابها المعنوية ، اذ لم يخطر ببالهم ان الطيران كان يمكن ان يتصل بعد ان خيم الظلام . اما الآن فقد صار املهم الاخير ان ينفد الوقود .

وذلك على كل حال ما كان حريا أن يقع عن قريب

وبدا مالينسون يتناقش فى هذه النقطة ، وادلى كونواى بتقديره الخاص ان اقصى مسافة يمكن ان تصل الى الف ميل ، وانهم ولا شك قد قطعوا الشطر الاعظم منها ، فقال الشاب بتفجع :

ـ حسنا ، ولكن اين يمكن ان يؤدى بنا هذا الطيران ؟

ـ ليس من السهل ان نحكم ، ولكن من المحتمل ان يؤدى بنا الى

مكان ما فى هضبة التبت ، فان كانت هذه الجبال هى كراكوران ، فهضبة التبت واقعة فيما وراءها

فضحك برنارد وقال :

ـ اظنك ينبغى ان تكون الدليل الرسمى فى هذه الرحلة ياكونواى ، اما بالنسبة لى ، فلو اننى فقط حصلت على قنينة من القهوة الساخنة ، لما اكترثت ان كانت التبت او التنيسى

فعاد مالينسون الى المجادلة ، وتساءل :

ـ ولكن ماذا نحن عازمون ان نصنع ؟ لماذا نحن هنا ؟ ما المقصود من هذا كله ؟ انا لا ادرى كيف تجعلون من هذا الامر دعابة

فقال الامريكى :

ـ حسنا ، ان الدعابة ليست اسوا من الغضب والصخب ايها الشاب

فعاد مالينسون يخاطب كونواى قائلا :

ـ لا بد انه مجنون ، لا استطيع ان اجد تفسيرا آخر ، اتستطيع انت ياكونواى ان تجد تعليلا مخالفا ؟

فاكتفى كونواى بهز راسه

وعندئذ التفتت الآنسة برنكلاو ، كما كانت حرية ان تلتفت فى استراحة بين فصول رواية تمثيلية ، وقالت بتواضع :

ـ بما انكم لم تسالونى رايى ، ربما كان ينبغى الا ادلى به ، ولكنى اود ان اقول اننى اوافق مستر مالينسون على رايه ، فلا شك عندى ان هذا الرجل المسكين لا يمكن ان يكون صحيح العقل ، اعنى بذلك قائد الطيارة طبعا ، ولا يمكن ان نجد له عذرا على كل حال ، ان لم يكن مجنونا حقا

ثم استطردت تعترف صارخة لتطفى على الطنين :

ـ اتعلمون ان هذه اول رحلة لى فى الجو ؟ ولا شيء كان يمكن ان

يحملنى على ركوب الجو قبل هذه المرة ، مع ان صديقة لى بذلت غاية وسعها لتقنعنى بالطيران من لندن الى باريس

فقال لها برنارد :

ــ سبحان الله ، هاانت تطيرين من الهند الى التبت بدلا من لندن الى باريس ، هذا حال الدنيا !

وكان كونواى يفكر فى ان تقبل الآنسة برنكلاو الهادىء للموقف فيه جاذبية عظيمة بعد كل حساب ، فجعل يبتسم لها مؤيدا ، ثم اغمض عينيه ، واتجه فى يسر وهدوء الى النوم

واستمر الطيران . . وعلى حين بغتة اوقظوا جميعا بهزة من الطائرة ، وكانت البرودة قد اشتدت اكثر من ذى قبل بكثير ، وكان اول ما اقدم عليه كونواى بطريقة آلية ، انه نظر فى ساعته ، فوجدها قد بلغت منتصف الثانية

وكانت اذناه حافلتين بصوت خفقان مرتفع ، ظنه فى اول الامر وهميا ، ثم تحقق ان الطائرة قد اوقفت آلاتها ، وهى تندفع فى اتجاه مضاد لريح قوية ، فحدق من النافذة ، وتمكن ان يرى الارض على مدى قريب . وصرخ مالينسون :

ــ انه سيهبط الى الارض

فقال برنارد :

ــ هذا ان وفق

اما الآنسة برنكلاو ، فيبدو انها كانت اقل الجميع انزعاجا . فقد انصرفت بكل هدوء الى وضع قبعتها فوق راسها

وبعد هنيهة مست الطائرة الارض ، ولكن الهبوط فى هذه المرة كان هبوطا رديئا ، فسمع شىء يتوتر ثم ينكسر ، وبعد ذلك انفجر احد الاطارات ، فتأوه مالينسون وقال :

ــ هذا فصل الخطاب ، كسرت عجلة الذيل ، ويتحتم علينا ان نبقى حيث نحن الآن . . هذا مؤكد

اما كونواى فليس من شيمته أن يتكلم كثيرا فى أوقات الازمات ، فمد ساقيه المتصلبتين ، وكان راسه قد ارتطم بالنافذة ، كذلك كان هو آخر من وقف من الاربعة عندما استقرت الطائرة ، ولما رأى مالينسون يفتح باب القمرة ، ويستعد للقفز الى الارض ، صاح :

ــ اتئت . .

فجاء جواب شاذ كأنه صوت شبح فى الظلام :

ــ لا حاجة للثبات ، فهذا فيما يبدو آخر الدنيا ، فليس فى المنطقة كلها نسمة واحدة من الناس على كل حال !

***

بعد برهة ادرك الجميع ، وهم يرتعدون من شدة البرد ، ان كلام مالينسون صحيح ، وشعروا ولا شىء يملأ آذانهم الا زفيف الرياح الهوجاء وصدى خطواتهم ، انهم تحت رحمة شىء مسحور ومروع بحيث لا نجاة لهم منه

اما مالينسون فكان يموج بنشاط محموم ، واندفع بالفعل نحو حجرة القيادة وهو يصيح :

ــ لست خائفا من هذا المخلوق ونحن على الارض ، كائنا من كان ، وسأتصل به فورا

فقفز كونواى وراءه ، بيد انه لم يتمكن من اللحاق به لايقافه عما اعتزم ، وبعد ثوان قليلة تدلى الشاب مرة اخرى وهو ممسك بذراعه وغمغم بصوت اجش قائلا :

ــ اعتقد يا كونواى ، ان الامر غريب ، واظن هذا المخلوق مريضا أو ميتا أو شيئا من هذا القبيل ، لم استطع ان اظفر منه بكلمة ، اصعد والق نظرة ، لقد جردته من مسدسه على كل حال

فقال له كونواى :

ــ الافضل ان تعطينى اياه

ومع انه كان لا يزال يشعر بدوار ، الا انه استجمع نفسه للعمل . ثم اتخذ وضعا متعبا ليتسنى له ان ينظر الى داخل حجرة القيادة المقفلة ، وشم رائحة بترول نفاذة ، فلم يجازف باشـعال الثقاب ، وتمكن من تبين الطيار منكفئا الى الامام ، راسه يتمرغ على مفاتيح القيادة ، وبعد لحظة استدار وادلى بتقريره :

ـ اجل ، لقد حدث له شيء ، ولا بد ان نعمل على اخراجه

وفي الوقت نفسه ، كان الملاحظ الفطن حريا ان يضيف الى ذلك ان شيئا قد حدث لكونواي ايضا ، فصوته صـار اشد حدة واقطع من ذى قبل ، ولم يعد يبدو مترددا ، فامامه الآن مهمة يجب بكل بساطة ان تؤدى ، وكان يتاهب لادائها

وبمساعدة مالينسون وبرنارد امكن استخرج الطيار من مقعده ، واقيم على الارض ، كان مغمى عليه لا ميتا ، ولم تكن لدى كونواى دراية طبية خاصة ، ولكنه ـ شأن معظم من عركتهم الاسفار ـ كان يعرف اعراض معظم الامراض ، فانحنى فوق الرجل المجهول وشخص الحالة بقوله :

ـ ربما اصيب بازمة قلبية بسبب الارتفاع الشديد ، ونحن هنا لا نملك ان نصنع له الا القليل جدا ، فلا وجود هنا لساتر من الرياح ، فالافضل ان ناخذه الى داخل القمرة ، وندخلها نحن ايضا ، ولا طائل من وراء اى حركة ناتيها قبل طلوع النهار

وحملوا الرجل الى داخل القمرة ، ومددوه فى الدهليز القائم بين المقاعد ، ولم يكن الجو فى الداخل ادفا من الخارج ، ولكن كانوا هناك بملاذ من الرياح

ورقد الرجل المجهول جامد الاوصال ، فى حين قام كونواى بفحصه بقدر ما يستطيع ، على صعوبة ذلك بسبب الظلمة وضيق المكان ، بيد ان الفحص الذى قام به لم يكشف عن شيء كثير ، واخيرا قال :

ـ ان قلبه ضعيف جدا . . خائر

وعندئذ قالت الآنسة برنكلاو بعد ان تحسست داخل حقيبة يدها الى ان استخرجت منها قنينة صغيرة :

ـ عسى ان تكون لهذه الزجاجة فائدة ما فى هـذه الحالة . اننى شخصيا لا اقرب الخمر ، ولكنى احملها دائما معى احتياطا لما قد يحدث من المفاجآت

ونزع كونواى سدادة الزجاجة ، ثم شمها ، وبعد ذلك صب قليلا من البراندى فى فم الرجل وهو يقول :

ـ هذا ما كان يلزمه بالضبط . . شكرا

وبعد برهة ظهر فى ضوء عود الثقاب اثر حركة يسيرة جدا فى جفون الرجل . واصبح كونواى الآن كتلة من القلق متجاوزا بذلك طبيعة استطلاعه الذهنى المستمر ، لانه اصبح يشعر ان الموقف كله لم يعد خطر خطورة مثيرة ، بل صار امتحانا للتجلد وقوة الاحتمال قد ينتهى الى كارثة

وبينما كان يقوم بالاستطلاع اليقظ اثناء الليل ، حاول ان يواجه الوقائع بصراحة ، وحدس ان هذا الطيران قد تجاوز الحافة الغربية للهملايا متجها الى مرتفعات اقل شهرة هى مرتفعات كوين لون . وعلى هذا الاساس يكونون الآن قد وصلوا الى اقل بقاع وجه الارض ترحيبا بالنزلاء . . الى هضبة التبت التى يبلغ ارتفاع اوطأ وديانها نحو ميلين عن سطح البحر . انها منطقة مترامية غير ماهولة ، تتحكم فيها الرياح المكتسحة ، ولم يتم كشف معظمها

***

كان هناك احتمال ان اقرب مقر ماهول بالسكان يبعد عن هـذا الموضع مئات الاميال ، وهم فضـلا عن هذا لا طعام معهم . وهم كذلك غير مسلحين الا بمسدس واحد . والطيارة معطوبة الآن وشبه خالية من الوقود ، حتى لو تمكن احدهم من التحليق بها . والجميع فيما عداه شخصيا قد اثر فيهم الارتفاع الشاهق [illegible] برنارد



غمرته الكآبة تحت تيارها . وماليـنسون يغمغم محـدثا نفسه . ولا خفاء فيما عساه يحدث له ان استمرت هذه المحن مدة طويلة

اما الآنسة برنكلاو ، فهى دون غيرها قد استطاعت بعد الكوارث المتوالية ان تحتفظ بثباتها . وكان امتنان كونواى لها عميقا من اجل هذا السلوك .

وبعد ذلك ركز اهتمامه فى الطيار ، فهو الآن يتنفس تنفسا كاملا ، ويتحرك حركة يسيرة فى بعض الاحيان . ان الرجل اشبه بالصينيين فله الانف المغولى النموذجى ، وعظام الخد كذلك ، بالرغم من تقمصه الناجح لشخصية ملازم طيار بريطانى

وجعل الليل يجرر اذياله ، وكأن كل دقيقة منه شىء ثقيل يجب ان يدفع دفعا ليخلى السبيل للدقيقة التالية . واخذت الظلمة والبرودة وهبوب الرياح تتزايد الى ان لاح الفجر

وكانما كان الفجر اشارة الى الريح ان تسكن ، فتركت العالم فى هدوء مستقر . ولما خفت وطأة الظلمة اخذ الوادى يبرز للعيان ، مسفرا عن ارض صخرية صاعدة بانحدار الى اعلى . ولم يكن فى هذه الصورة ما يبشر بالخير ، ومع هذا فقد تراءت لكونواى وكأن فيها شيئا من الرفاهة

ولما اخذ الهواء فى الدفء ، واستيقظ الآخرون ، اقترح عليهم ان يحملوا الطيار الى العراء ، عسى ان يساعد الهواء الجاف العنيف ، وضوء الشمس على انعاشه ، وتم ذلك فعلا ، وبذلك ابتداوا مرحلة اخرى اخف وطأة من الاولى .

وسرعان ما فتح الرجل عينيه ، ثم بدا يتكلم فى تشنج ، فانحنى الاربعة فوقه ينصتون باهتمام فائق لأصوات لم يكن لها معنى اللهم الا لشخص واحد منهم هو كونواى ، الذى كان يرد عليه بين الحين والحين

وبعد ذلك ببرهة اخذ الرجل يزداد ضعفا ، والصعوبة التى فى الكلام تشتد ، واخيرا مات . وكان ذلك قرب الضحى

وعندئذ التفت كونواى الى رفاقه وقال لهم :

— يؤسفنى ان اقول انه لم يخبرنى الا بالقليل جدا .. واعنى بالقليل جدا انه بالنسبة لما كنا نحب ان نعرفه ، اخبرنى اننا فى هضبة التبت ، وهذا كان ظاهرا . ولم يذكر لى اى معلومات عن سبب مجيئه الى هنا ، ولكن يبدو انه يعرف الموضع جيدا ، وكان يتكلم ضربا من اللغة الصينية لم اكن افهمه كل الفهم . ومع هذا اظنه قال شيئا عن دير للاما قريب من هنا ، فهمت منه انه يقع على طول الوادى . واننا نستطيع ان نحصل هناك على الطعام والمأوى . وكان يسمى ذلك الدير شانجرى لا ، وكان متحمسا جدا لضرورة ذهابنا الى هناك

فقال مالينسون :

— هذا لا يبدو لى سببا وجيها على الاطلاق للذهاب الى هناك ، فما يدرينا انه ليس فى حالة خبال ، الم يكن مخبولا ؟

— علمى فى هذا بقدر علمك، ولكننا ان لم نذهب الى ذلك الموضع : فالى اين اذن نذهب ؟

— حيثما شئتم ، فانا لا ابالى . وكل ما انا واثق منه هو ان هذا الشانجرى لا ، اذا كان فعلا فى هذا الاتجاه ، لا بد ان يكون اكثر بعدا مما نحن الآن عن العمران والحضارة ببضعة اميال . وكان يسعدنى كثيرا ان نقصر المسافة بيننا وبين المدينة ، لا ان نطيلها . بحق السماء يا رجل ، الا ترى ان تعود بنا ؟

فأجابه كونواى فى صبر واناة :

— لا اظنك تدرك الموقف تمام الادراك يامالينسون ، اننا هنا فى مكان من العالم لا يعلم احد عنه شيئا ، اللهم الا انه مكان وعر محفوف بالمخاطر ، حتى للبعثات الكشفية الكاملة المعدات . فاذا قدرت انه ربما كانت تحيط بنا من كل جانب مئات الاميال من طراز هذه المنطقة ، لم تكن فكرة العودة سيرا على الاقدام الى بشاور بالفكرة التى تبدو لى معقد الرجاء

فقالت الآنسة برنكلاو :

ـ لا اظن اننى اقدر على مشقاتها

وهز برنارد راسه وقال :

ـ يبدو لى اننا كنا حسنى الطالع ، ان صح ان دير اللاما الذى اشرت اليه موجود فعلا « على الناصية »

ووافقه كونواى قائلا :

ـ ربما كنا فعلا سعيدى الحظ نسبيا ، فنحن على كل حال ليس معنا طعام ، وهذا الاقليم كما ترون بانفسكم ليس من الاقاليم التى يسهل على المرء ان يعيش على خيراتها . وفى مدى ساعات قلائل سنجد انفسنا نتضور جوعا ، وحين يقبل الليل سيتحتم علينا ان بقينا هنا ان نواجه الرياح والبرد مرة اخرى ، ففرصتنا الوحيدة فيما يبدو لى ، ان نجد كائنات بشرية اخرى ، واين عسى ان نبدا البحث عنها الا فى المكان الذى قيل لنا انها موجودة فيه ؟

ولما لم يجادله فى هذه لمسالة احد ، استطرد قائلا :

ـ افهم من هذا اذن اننا جميعا شبه متفقين ؟ وهناك طريق واضح على طول الوادى ، ولكننا يجب ان نوغل فيه برفق ، ونحن على كل حال ليس امامنا ما نصنعه هنا . بل اننا ما كنا نستطيع ان ندفن هذا الرجل بغير الاستعانة بالديناميت ، وفضلا عن هذا قد يكون فى وسع اهل دير اللاما ان يمدونا بالحمالين لرحلة العودة . واقترح ان نبدا السير فورا ، حتى اذا لم نهتد الى مكان الدير حتى أواخر العصر ، وجدنا متسعا من الوقت كى نعود فنقضى ليلة اخرى فى قمرة الطائرة

فقال مالينسون محتدا :

ـ وهب اننا اهتدينا الى المكان ، ما الذى يضمن لنا اننا لا نقتل ؟

ـ لا ضمان على الاطلاق ، ولكن القتل هو بالذات آخر شىء يمكن ان يتوقعه المرء فى دير

فهز مالينسون كتفيه ، واجاب فى حدة حزينة :

ـ حسن جدا . . سنرحل الى شانجرى لا ، واينما كانت ، ومهما كانت ، فسوف نجربها ، ولكن عسى الا تكون فى منتصف الجبل

وافادت هذه الملحوظة فى تحويل انظارهم الى ذلك القمع المتلألىء الذى يصعد اليه الوادى ، فبدا رائعا فى ضياء النهار الكامل . وبعد ذلك تحولت انظارهم الى حملقة ، لانهم تبينوا على البعد اشكال اناس يهبطون سفح الجبل نحوهم

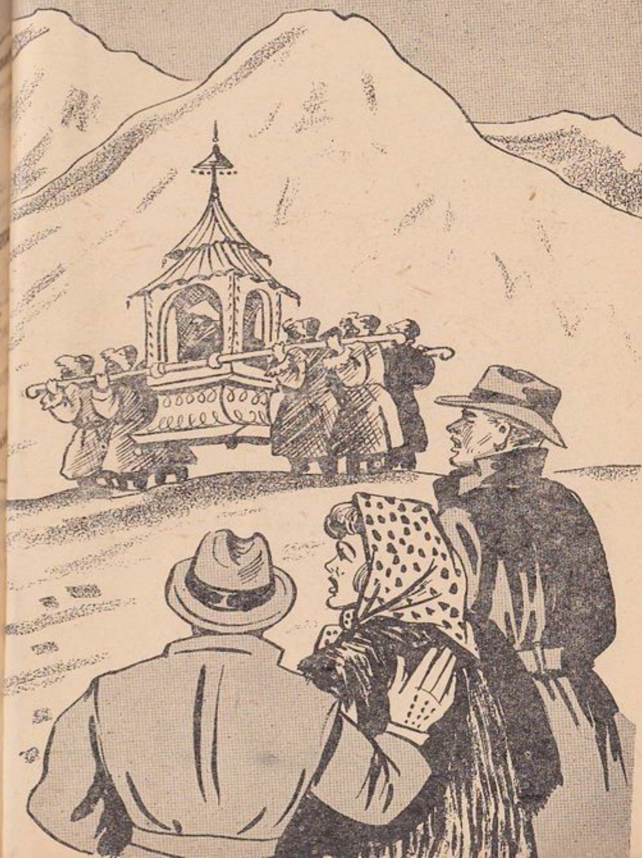
وهمست الآنسة برنكلاو قائلة :

ـ انها يد العناية !

***

تقدمت الاشباح هابطة الى الوادى ، فظهر انهم جماعة تبلغ الاثنى عشر ، أو ما يزيد قليلا ، تحمل كرسيا مسقوفا . وامكن بعد ذلك تمييز شخص يرتدى ثيابا زرقاء ، جالسا فى ذلك الكرسى ولم يستطع كونواى ان يعرف المكان الذى يقصدون . بيد انه كانت من رحمة الله بهم ، كما قالت مس برنكلاو ، أن تمر بهم مثل تلك الجماعة ، فى مثل ذلك الوقت، على اية حال . وعندما اقتربت الجماعة منهم ، ترك كونواى رفاقه واتجه نحوها ، حتى اذا صار على مقربة بضع ياردات منها ، توقف وانحنى محييا فى رقة وادب .

وكم كانت دهشته عظيمة ، عندما نزل الرجل ذو « الروب » الازرق عن كرسيه ، وكان عجوزا صينيا فى رداء حريرى ، وتقدم لمقابلته فى اناة ووقار ، ومد اليه يده وهو يقول فى انجليزية سليمة :



ـ اننى من دير شانجرى لا

وانحنى كونواى مرة اخرى ، ثم اخذ يشرح باختصار الظروف التى اتت به مع رفاقه الى ذلك المكان . وفى نهاية حديثه اشار اليه الصينى اشارة تدل على الفهم ، ثم قال :

ـ انه لشىء غريب فعلا

وبعد ان نظر متمعنا فى الطائرة المحطمة ، استطرد :

ـ ان اسمى تشانج ، وارجو ان تتفضل بتقديمى الى اصدقائك

وحاول كونواى ان يبتسم ابتسامة طبيعية ، وقد امتعه ان يرى هــذه المجاملات الرسمية فى بلاد التبت ، ثم تحــول الى رفاقه الآخرين ، وكانوا قد لحقوا بالجماعة ، ووقفوا يتطلعون الى ما يحدث وهم على درجات متفاوتة من الدهشة . ونظر كونواى الى رفاقه ، ثم اخذ يقدمهم للرجل قائلا :

ـ مس برنكلاو .. مستر برنارد امريكى .. مستر مالينسون ..

وانا اسمى كونواى .. نحن جميعــا مسرورين بمقابلتكم ، وان كان اللقاء يكاد يبلغ فى غرابته ، غرابة وجودنا هنا . والواقع اننا كنا فى طريقنا الى ديركم ، مما يجعل حسن حظنا مزدوجا ، فاذا تكرمت فأعطيتنا التعليمات لاستئناف الرحلة ..

ـ لا داعى لذلك ، فانه يسرنى ان اكون بنفسى دليلكم فى السير

ـ ولكنى لا اود ان اسبب لكم هذا التعب اطلاقا ، انه لعطف بالغ منك ، ولكن اذا لم يكن المكان بعيدا ..

ـ انه ليس ببعيــــد ، ولكن الطريق وعر ، وانى لاعده شرفا ان اصحبك واصدقاءك ..

ـ ولكن حقيقة ..

ـ اننى أصر !

فأذعن كونواى ، واجاب قائلا :

ـ حسنا ، وانا واثق اننا جميعا مدينون لكم بهذا الفضل

وهنا قال مالينسون فى حدة :

ـ لن نمكث بينكم طويلا ، وسوف ندفع جميع النفقات ، كما اننا نود ان نستأجر بعض رجالكم ليساعدونا فى طريق عودتنا ، لاننا نريد أن نعود الى عمران المدنية فى اقرب وقت

ـ وهل انت متأكد من انك الآن بعيد عن المدنية ؟

فلم يزد هذا التساؤل الفتى الا امعانا فى الحدة ، فقال :

ـ اننى متأكد من هذا كل التأكيد . اننى بعيد كل البعد عن المكان الذى اريد ان اكون فيه ، وكذلك سائرنا . وسوف نكون شاكرين لكم الضيافة المؤقتة ، ولكن شكرنا سيتضاعف ، لو زودتمونا بوسائل العودة . كم تظن الرحلة تستغرق الى الهند ؟

ـ الواقع اننى لا ادرى مطلقا

ـ حسنا ، ولكنى اؤمل الا تجد اية صعوبة فى طريق العودة . لقد سبق لى ان اجرت بعض الحمالين من مثل هذه البلاد ، ونحن نتوقع ان تستخدم نفوذك لتحصل لنا على العدد اللازم منهم

واحس مالينسون بأن فى حديث كونواى من الخشونة ومجافاة الذوق ما لم يكن له ثمة داع ، وكان على وشك التدخل ، عندما اجاب العجوز فى وقار بالغ :

ـ اننى استطيع فقط ان اؤكد لك يا مستر مالينسون انكم سوف تعاملون بمنتهى الاكرام ، وانكم لن تأسفوا فى النهــاية على اى شىء

فصاح مالينسون :

— فى النهاية ؟ !

ولكن صياحه لم يلبث ان تحول الى دهشة ممزوجة بالسرور عندما ازاح بعض افراد الجماعة الاربطة عما يشبه الحقيبة فى ايديهم ، وقدموا لضيوفهم فاكهة وخمرا من النوع الجيد . ولقد اكل مالينسون وشرب بشهية بالغة ، ولكن كونواى كان فى عجب من امكان قطف ثمار المانجو فى مثل تلك البقاع المرتفعة . ولقد استرعى نظر كونواى ايضا ، الجبل الواقع خلف الوادى ، فقد كانت له قمة بالغة الروعة . والتفت فراى الصينى ينظر اليه باهتمام ، ولم يلبث ان ساله قائلا :

— هل كنت تتأمل الجبل يا مستر كونواى ؟

— اجل .. انه لمنظر بديع ، اليس له اسم ؟

— انه يسمى كاراكال

— لا اخالنى سمعت به من قبل ، اهو مرتفع جدا ؟

— ما يربو على ثمانية وعشرين الف قدم

وما ان انتهت الجماعة من طعامها حتى استانفت سيرها الى شانجرى لا . وظلوا طيلة الصباح يتسلقون الجبال ببطء وبالتدريج ، دون ان يتكلموا ، فقد استغرق التسلق كل نشاطهم . وكان الصينى يتقدم محمولا فى تنعم واكرام على كرسيه ، اما كونواى — وكان اقل الاربعة تاثرا بحالة الجو على ذلك الارتفاع الشاهق — فقد اخذ يحاول ان يلم باطراف من مسامرات الرجال الذين كانوا يحملون القائد العجوز . وكان يعرف القليل من لغة اهل التبت ، ولم يستطع ان يفهم حديثهم تماما ، وانما ادرك ان القوم مسرورين بعودتهم الى الدير . اما القائد فلم يلبث ان اغمض عينيه ، واسلم جفنيه للنعاس

وبعد ان قطعوا ميلين ، اصبح الصعود اشد صعوبة ، ولم تلبث

الشمس ان اختفت وراء السحب ، واظلمت مشاهد الطبيعة من حولهم . وبرد الجو ، ودوى الرعد من حقول الثلوج فوقهم ، واجتاحتهم موجة من المطر والصقيع على حين غرة ، فاضافت الى متاعبهم الشىء الكثير ، حتى ان كونواى ذاته بات يحس ان التقدم فى انسير من المستحيلات . ولكن لاح لهم بعد ذلك بوقت قصير انهم قد وصلوا الى قمة المرتفع ، عندما توقف حاملو الكرسى ليصلحوا من شانهم ، واخذ اتباع القائد يخرجون لفافات كبيرة من الحبال ، ففهم كونواى انهم يريدون ربط الجماعة معا ، حتى يسهل الصعود ، كما يفعل متسلقوا الجبال احيانا . ولما كان كونواى على علم بمثل هذه الاشياء ، فقد تركوا له تنظيم الامر ، ناظرين اليه بعين التقدير والاحترام . كما لاحظ انهم يميلون الى تسليمه قيادهم اثناء نوم القائد ، وادرك ان عليه حينئذ ان يعطى ما هو من حقه ان يعطى ، اى الثقة والتوجيه

وكانت المرحلة الثانية فى الصعود شاقة جدا ، ولكن كونواى كان قد اعد لها عدته ، وكان الممر الذى يسيرون فيه بين القمم الشاهقة لا يتعدى اتساعه القدمين فى بعض المواضع ، ولكن مهارة الحمالين فى التقدم بحملهم اثارت اعجاب كونواى البالغ ، كما اثارت دهشته قدرة القائد على النوم العميق فى مثل تلك الظروف

وكان مالينسون يشعر برعب شديد ، وكان خطر اعرابه عن ذلك بملامحه وسلوكه قد زاد ، بعد ان زالت اسوا المراحل ، واذا به يقول :

— اننى لست مطمئنا الى كل هذا .. واخشى ان نطيع هؤلاء الناس اكثر مما ينبغى . واحس انهم سيوقعوننا فى مأزق

— لا يوجد امامنا غير هذا ، اللهم الا ان نقف حيث نحن لنتجمد من البرد

— هذا منطق سليم ، ولكن لا غناء فيه ، الا يبدو كل هذا الذى

حدث لنا كحلم خيالى مزعج ؟

وبينما هم يتحدثون ، اتسع الطريق تحت اقدامهم فجاة ، ثم اخذ ينحدر على سفح الجبل ، واستوت الارض ، ثم وجدوا انفسهم يخطون من منطقة الضباب الى منطقة مشرقة واضحة المعالم . ولم يلبث دير شانجرى لا ان لاح امامهم على بعد قريب

وكان منظرا غريبا تكاد العيون لا تصدقه ، فقد ظهرت على جانب الجبل مجموعة من المبانى الملونة ذات الشرفات ، وخلفها لاحت منحدرات كاراكال الثلجية فى شكل هرمى يبهر العيون . وما ان راى كونواى ذلك المشهد حتى تبادر الى ذهنه ان تلك ربما تكون هى اضخم وأشد البقع الجبلية فى العالم هولا . .

وامسكت اعينهم باطياف باهتة من الوادى الاخضر البعيد ، الذى استقر بين القمم آمنا الرياح العاتية . ووقفت ابنية الدير على راسه كالملاك الحارس ، فلاح ذلك الوادى لكونواى كمكان بهيج محبب الى النفس ، على الرغم من انه لو كان مسكونا لعزلته تلك القمم الشاهقة التى لا يقوى على تسلقها احد ، عن العالم

ولم يستطع كونواى ان يذكر على وجه التحديد كيف وصل مع الآخرين الى الدير ، وكيف استقبلوا بالترحيب من اهله ، ولكنه يذكر على اية حال انه دهش كثيرا لرؤية الغرف الفسيحة داخل الدير دافئة نظيفة . على انه لم يكن هناك وقت حينئذ لملاحظة ما هو اكثر من ذلك ، فقد نزل الصينى عن كرسيه لدى وصولهم ، وقال :

ـ يجب ان اعتذر لترككم لانفسكم اثناء الطريق ، اذ الواقع ان الرحلات من هذا النوع العنيف اصبحت لا تلائمنى ، ويجب ان اعتنى بصحتى . على انى ارجو الا تكونوا قد تعبتم كثيرا

فاجابه كونواى وهو يبتسم :

ـ لقد تدبرنا امرنا

ـ عظيم . . والآن ارجو ان تصحبونى لادلكم على غرفكم الخاصة ، ولا شك انكم راغبون فى الاستحمام . ان منزلنا بسيط ولكنه مناسب ، واظن انكم سوف تجدون فيه كل ما يلزمكم ، وبعد الفراغ من ذلك ، ستغدقون على شرفا عظيما ان انتم تكرمتم بمشاركتى طعام العشاء . .

***

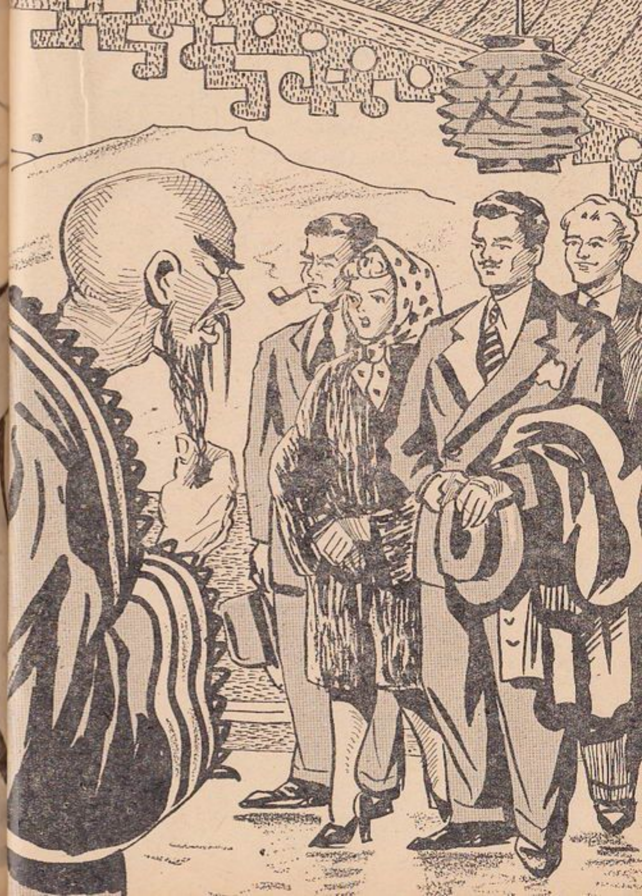
وقال تشانج :

ـ هاانتم رأيتم اننا لسنا همجيين بقدر ما توقعتم ..

والواقع ان كونواى كان فى نهاية ذلك المساء غير مستعد لانكار هذه الحقيقة ، لأن جميع المعدات التى كانت فى شانجرى لا ، كانت اقصى ما يتمناه ، واحسن بالتأكيد من كل ما توقعه

كان الدير يمتلك جميع وسائل الراحة الحديثة ، بما فى ذلك الحمامات الاوربية والتدفئة المركزية . ولما كان كونواى قد عاش زهاء عشر سنوات بين الصينيين ، وهى فترة اعتبرها اسعد فترات حياته ، فقد شعر بالفة لوسائلهم واساليبهم . وكان يحب على الخصوص طريقة طهوهم . ولهذا لقيت اول وجبة له فى شانجرى لا ترحيبا عظيما منه .

ولاحظ اثناء الطعام ، ان شانج



لم يأكل الا جانبا يسيرا من السلاطة الخضراء ، ولم يتناول شيئا من النبيذ ، وقد علل ذلك بقوله لضيوفه :

ـ اعذرونى ، فنظامى الغذائى محدود جدا ، ويجب على ان اعنى بنفسى ..

وكان هذا هو السبب بعينه الذى ابداه فى مناسبة سابقة . وعجب كونواى فى نفسه ، ماذا عسى ان يكون مرضه . ولما تمعن فيه عن كثب ، وجد من الصعوبة بمكان ان يستنتج عمره ، فملامحه التى تميل الى الصفرة ، وجلده البنى الذى يشبه الفخار الرطب ، كانت تضفى عليه سيماء لك ان تظنها لشاب شاخ قبل الاوان ، او لشيخ محتفظ بصحته على نحو فائق . وكان يبدو فى عباءته الحريرية الزرقاء المزركشة هادئا هدوءا استراح اليه كونواى وراق له

وكان الجو فى الحقيقة صينيا اكثر منه تبتيا ، وكان هذا وحده كافيا لاشعار كونواى انه ليس غريب الدار . وبعد ان انتهى من الطعام اشعل سيجارة ، ثم قال لتشانج :

ـ انكم فيما يظهر جماعة من الناس مجدودة الطالع جدا . تكرمون الغرباء اكراما عظيما ، ولكنى لا اظنكم مع هذا تستقبلونهم بكثرة

فأجابه الصينى قائلا :

ـ نادرا جدا فى الواقع ، فليست هذه المنطقة بالمطروقة

فابتسم كونواى لهذه الاشارة ، وقال :

ـ انك فى الواقع تعبر عنها تعبيرا هينا ، لان هذه البقعة بدت لى حين حضرت ، اكثر البقاع التى وقعت عليها عينى عزلة عن العالم

وعندئذ قطعت الآنسة برنكلاو الحديث قائلة :

ـ ارجو ان تخبرنا بحديث هذا الدير

فرفع تشانج حاجبيه ، واجابها قائلا :

ـ ان هذا يا سيدتى يتيح لى اعظم سرور مادام فى حدود

استطاعتى ، فخبرينى ماذا تريدين بالضبط ان تعرفى عنه ؟

ـ اولا وقبل كل شىء ، كم عددكم هنا ؟ والى اى القوميات تنتمون ؟

ـ ان عدد من وصلوا الى مرتبة اللاما الكاملة يبلغ نحو الخمسين . وهناك عدد قليل ممن هم على شاكلتى لم يصلوا بعد الى السمو الكامل . اما من حيث اصولنا الجنسية ، ففينا ممثلون لقوميات شتى ، وان كان من الطبيعى ان اهل التبت واهل الصين هم الكثرة الغالبة

ـ فهمت ! هو اذن دير وطنى ، وهل اللاما الكبير من اهل التبت ، ام هو صينى ؟

ـ كلا

ـ وهم بينكم انجليز ؟

ـ كثيرون ...

وتمهلت الآنسة برنكلاو الى ان استجمعت انفاسها ، واستطردت :

ـ والآن خبرنى ما هى العقيدة التى تدينون بها جميعا ؟

فأجابها تشانج فى بطء شديد ، وبصوت لا يكاد يزيد على الهمس :

ـ ان كان لى يا سيدتى العزيزة ان اعرب عن ذلك فى كلمات قليلة جدا ، فانى اقول ان عقيدتنا السائدة هى « الاعتدال » . فنحن ننمى فضيلة تجنب التطرف بجميع انواعه . ففى الوادى الذى رأيته، والذى فيه يعيش بضعة الوف من السكان تحت رعايتنا وادارتنا ، تجديننا نحكم بحزم معتدل . وفى مقابل ذلك تكتفى منهم بطاعة معتدلة . وانا اظن انه يجوز لى ان ادعى ان شعبنا معتدل فى عفته ، معتدل فى اتزانه ، معتدل فى امانته

وابتسم كونواى لهذا الكلام ، فقد وجده جيد التعبير ، فضلا عن انه يوافق مزاجه الخاص . فقال :

ـ احسبنى فهمت ماتقول . واظن الاشخاص الذين قابلونا هذا الصباح ينتمون الى شعب واديكم ؟

— اجل ، وارجو الا تكون قد اخذت عليهم اخطاء اثناء الرحلة ؟

— كلا ، لاشيء على الاطلاق . وقد اسعدنى انهم كانوا اكثر من معتدلين فى ثبات أقدامهم على كل حال . وقد سمعتك تعنى أن تقول بهذه المناسبة ان قاعدة الاعتدال تطبق عليهم ، فهل لى أن افهم من هذا الكلام انها لا تطبق على رهبنتكم ايضا ؟

وعندئذ لم يسع تشانج سوى ان يهز راسه ، ثم قال :

— يؤسفنى ياسيدى انك تعرضت لموضوع ليس لى ان ابحثه معك وانى عميق الاستياء بعجزى فى الوقت الحاضر عن مزيد من الايضاح

— ارجوا الا تعتذر ، فانك تترك لى اعذب مجالى التفكير

وكان فى صوته الخاص ، وفى احساساته الجسميه ، ما اوحى الى كونواى بانه كان واقعا تحت تأثير مخدر خفيف جدا

ويبدو انه قد اغتنم الفرصة السانحة ليقول :

— كل هذا كان ممتعا جدا ، ولكنى فى الحقيقه اظن ان الوقت قد حان لنناقش خططنا بصدد العوده ، فنحن نريد أن نعود الى الهند فى اسرع وقت مستطاع ، فكم عدد الحمالين الذين يمكن امدادنا بهم ؟

وطال صمت تشانج شيئا ما ، الى أن اجابه قائلا :

— لسوء الحظ يا مستر مالينسون اننى لست الشخص الذى يختص بهذه المسائل . ولكن على كل حال لست اظن الموضوع مما يمكن تسويته فى الوقت الحاضر مباشرة

— ولكن لابد من عمل شيء ، فجميعنا لدينا اعمال يجب أن نعود اليها ، واصدقاؤنا وذوونا سينزعجون جداً من اجلنا . فان كان ذلكممكنا بأى حال ، فنحن نحب أن نرحل فى وقت لا يتجاوز الغد، واتوقع أن أجد بين شعبكم الكثيرين الذين يرحبون بالتطوع بصحبتنا ادلاء . . . فنحن سنجزيهم على تعبهم جزاء سخيا بطبيعة الحال

وختم مالينسون عبارته فى عصبيه ، كمن كان ينتظر ان يتلقى

جوابا من غير ان يحتاج الى كل هذه الكلمات ، بيد انه لم يستطع ان يستخرج من شانج اكثر من عبارة هادئه فيها مسحة من اللوم ، اذ قال له ذلك الصينى :

— ولكن هذا كله ليس من اختصاصى كما تعلم

— حقا ؟ اذن ربما كان فى استطاعتك ان تفعل شيئا على كل حال ، فلو اتيتنا مثلا بخريطة كبيرة الحجم لهذا الاقليم لكانت عونا كبيرا لنا ، اذ تدل الدلائل على ان رحلتنا ستكون طويلة ، وهذا مما يجعلها ادعى ان تبدا مبكرا . . لديكم خرائط فيما اظن ؟

— اجل . . لدينا خرائط كثيرة جدا

— اذن سنقترض بعضا منها ، ان لم يكن لديكم مانع . وفى امكاننا ان نعيدها اليكم فيما بعد . . لاننى احسبكم على اتصال بالعالم الخارجى بين الحين والحين . كما انه من المستحسن ان نرسل خطابات ايضا من هنا لتطمين اصدقائنا . فكم يبعد اقرب خط من خطوط البرق عن هذا المكان ؟

فارتسمت على وجه تشانج المغضن آيات صبر ليس له آخر ، بيد انه لم ينطق بجواب ، وتمهل مالينسون برهة ، ثم استطرد :

— والآن . . الى من تبعثون ، والى اين تبعثون بطلباتكم حينما تحتاجون الى شيء ؟ واعنى بذلك شيئا من امور المدينة

وكانت امارات الخوف قد بدات تظهر فى عينيه وصوته . وعلى حين غرة دفع كرسيه الى الوراء ونهض واقفا . كان شاحب الوجه وهو يمر بيده فى اعياء على جبينه ، ثم غمغم وهو يدور بعينيه محملقا فى ارجاء الحجرة من حوله :

— انى اشعر بتعب شديد ، ولا اشعر ان اى واحد منكم مهتم حقيقة بمد يد المعونة لى ، ولم اسال الا سؤالا يسيرا ، ومن البديهى انك بغير شك تعرف جوابه ، فحينما جلبتم وركبتم هذه الحمامات الحديثة ، كيف وصلت الى هنا ؟

فاعقبت ذلك فترة صمت اخرى ، ثم استطرد :

ـ انك لا تريد ان تخبرنى ، اليس كذلك ؟ هى اذن جزء من اللغز الذى يشمل كل شىء هنا فيما احسب ، ولكن من الضرورى المحتم

وكان مالينسون خليقا ان يسقط على الارض لولا أن كونواى ادركه وساعده على الجلوس فى مقعد ، وعندئذ افاق قليلا ، بيد انه لم يستطع ان يتكلم ، فقال تشانج برقة :

ـ غدا ستتحسن حالته كثيرا ، فالهواء هنا عسير على الغرباء فى اول عهدهم به ، ولكن المرء سرعان ما يتكيف . . .

فشعر كونواى وكأنه يستيقظ من غفوة ، وقال بترفق :

ـ لقد كانت الامور شديدة الوقع عليه . .

ثم اردف بشىء من الحدة :

ـ واعتقد اننا جميعا نشعر بذلك على نحو ما . . ولهذا اظن من الأفضل ان نترك المناقشة الآن ، ونأوى الى مخادعنا . فهل لك يابرنارد ان ترعى شأن مالينسون ؟ وانت يا آنسة برنكلاو ، لا شك عندى انك بحاجة الى النوم . .

ويظهر ان اشارة خفية اعطيت ، اذ ظهر فى هذه اللحظة خادم ، فاستطرد كونواى يقول على عجل :

ـ اجل ، سنذهب جميعا الى مخادعنا . . طابت ليلتكم . . طابت ليلتكم ، ساتبعكم بعد قليل

وكاد ان يدفعهم دفعا الى خارج الحجرة ، ثم عاد الى مضيفه :

ـ والآن يا سيدى ، لا اريد ان احتجزك عن فراشك طويلا ، لهذا افضل أن امضى الى هدفى مباشرة . ان رحلة العودة ينبغى ان تعد لها العدة ، ولن نتمكن من ذلك ما لم تبذل لنا معونتك . وانا بطبيعة الحال مدرك ان الرحيل غدا امر مستحيل ، بل اننى من جهتى اتمنى أن اجد فى اقامة قصيرة هنا مايثير اهتمامى ويشوقنى . بيد انهذا

ربما لم يكن موقف رفاقى . وعلى هذا ، ان صح انك كما تقول لا تملك ان تفعل لنا شيئا بنفسك شخصيا ، أرجوك أن تتفضل فتدلنا على شخص آخر يستطيع ذلك

فأجابه الصينى :

ـ انك اعقل من اصدقائك يا سيدى العزيز ، ولهذا انت اكثر منهم صبرا واقل تعجلا ، وهذا مما يسرنى

ـ ليس هذا جواب سؤالى

فاخذ تشانج يضحك . . وكانت ضحكة حادة يظهر عليها الانفعال ، ثم قال بعد برهة صمت :

ـ انا واثق انه ليس لديك داع للقلق من جهة هذه المسألة ، ولا شك اننا فى الوقت المناسب سيكون فى مقدورنا ان نقدم لكم كل المعونة التى تريدونها ، فاذا نحن جميعا تناولنا المشكلة تناولا معقولا ، وبغير عجلة لا مقتضى لها . .

فقاطعه كونواى قائلا :

ـ لست اتطلب العجلة ، وانما انا اطلب معلومات عن الحمالين فحسب . .

ـ وهذا يا سيدى العزيز يثير مسألة اخرى ، لانى اشك كثيرا انكم ستجدون بسهولة رجالا مستعدين للقيام بمثل هذه لرحلة . فلديهم بيوتهم فى الوادى ، وهم لا يكترثون ان يغادروها للقيام برحلات طويلة شاقة فى الخارج .

ـ ولكن يمكن حملهم على ذلك ، والا فلماذا ، والى اين كانوا يحملونك شخصيا هذا الصباح ؟

ـ هذا الصباح ؟ اوه . . هذه مسألة اخرى تماما

ـ وما وجه الاختلاف ؟ الم تكن انت قائما برحلة عندما التقيت واصحابى بك صدفة ؟

ولم يتلق جوابا على هذا السؤال ، فاستطرد كونواى قائلا بصوت اكثر هدوءا :

— فهمت . . اذن لم يكن لقاؤنا من قبيل المصادفة ، والحقيقة اننى كنت متعجبا طول الوقت من ذلك اللقاء . اذن انت كنت قادما عن عمد لتأخذنا معك . وهذا يوحى انك كنت ولا بد تعرف نبأ وصولنا سلفا . . والسؤال الشائق الذى يحضرنى الآن هو كيف كان ذلك ؟

وكان ضوء المصباح يكشف عن وجه الصينى بوضوح ، وكان هذا الوجه هادىء جدا . وفجأة حرك تشانج يده حركة يسيرة ازاح بها جانبا ستارا حريريا مطرزا ، كشف عن نافذة تؤدى الى شرفة ، ثم بلمسة هينـة على ذراع كونواى قاده الى الهواء البـارد ، ثم قال بلهجة حالمة :

— انك بارع ، ولكنك لست على صواب مطلق ، ولهـذا السبب احب ان انصح لك لكى لا تزعج اصحابك بهذه المناقشات ، وصدقنى انه لا انت ولا هم فى خطر وانتم فى شانجرى لا

— ولكننا لسنا خائفين من الخطر ، بل من التاخير

— انا مدرك هذا ، وبطبيعة الحال قد يحـدث شىء من التأخير ، بحيث لا نستطيع له دفعا

— ان كان ذلك التأخير لمدة من الزمن قصيرة ، فمن الطبيعى ان نروض انفسنا على قضائها بخير ما نستطيع

— هذا كلام يدل على فطنة كبيرة ، لاننا لا نريد شيئا اكثر من ان نتمتع ، ويتمتع رفاقك بكل لحظة من لحظات اقامتكم هنا

— لا استطيع ان اقول اننى اضيق كثيرا بالمكث هنا ، فهى تجربة جديدة وشائقة ، ونحن على كل حال بحاجة الى قسط من الراحة بعد هذه المشاق

وكان يرمق بنظره الى فوق شكل قمة كاراكال الهرمية اللامعة ، واجابه تشانج قائلا :

— بل ربما وجدت الاقامة هنـا فى غد ادعى للتشويق ، واما بخصوص الراحة ان كنت متعبا ، فليست هناك أمكنة كثيرة تفضل هذا المكان فى العالم كله لهذا الغرض

وحقيقة شعر كونواى وهو ماض فى التحديق براحة اعمق تطفى عليه ، فقد كان الوادى كما بدا له مثل ميناء تحيط به الارض ، وقمة كاراكال تشرف عليه من اعلى كانها منار ذلك الميناء

واغراه شىء خفى ان يسـأله عن معنى ذلك الاسم ، واتاه جواب تشانج وكانه صدى مهموس لافكاره التى لم يتلفظ بها ، اذ قال الصينى بغتة :

— ان كاراكال بلغة اهل الوادى معناها القمر الازرق !

***

لم يستطع كونواى ان يتخلى عن الاستنتاج الذى وصـل اليه ، ومؤداه ان وصوله ورفاقه الى شانجرى لا كان امرا متوقعا من جانب سكانه على نحو ما ، كان يرى لاول وهلة ذلك الاستنتاج ، وكان يشعر ان لهذه المسألة اهميتها ، ولكن بمجرد ان طلع النهار ، لم تعد هـذه المسألة تزعجه كثيرا ، حتى اصبح لا يستريح الى ازعاج الآخرين بها

كان فى سريرته شىء يلح عليه ان هـذا المكان يحيط به غموض غريب ، وكذلك يحيط بتشانج . انهم حقيقة كانوا سجناء ، وكان من الواضح ان واجبه يقتضيه ان يحمل السلطات على العمل ، لانه ممثل رسمى لحكومته ، وفى مقدوره ان يؤدى دور الرجل القوى كما كان يفعل فى باسكول ، ولكنه فى الواقع لم يكن من اهل العمل الايجابى الا حينما لا يكون له فى الامر اختيـار ، ومن جهـة اخرى كان لغز شانجرى لا ، ولغز وصوله الى هناك ، يسيطران على مشاعره بحيث وجد صعوبة فى اشعار نفسه بالقلق ، وسره كثيرا ان يجد ان التزام الراحة تلك الليلة كان له اثره الطيب على رفاقه ، فتسنى لبرنارد ان يمزح بمرح تام وينكت على الاسرة والحمامات وطعام الافطار ، اما



الآنسة برنكلاو فاعترفت انهـا نقبت فى حجرتها تنقيبا دقيقا اثبت عجزها عن الكشف عن المنغصات التى كانت تعد نفسها لملاقاتها ، اما مالينسون فبدا مذعنا ، اذ غمغم قائلا :

ــ اظننا سوف لا نرحل اليوم على كل حال ، اللهم الا اذا اهتم احد بذلك اهتماما خارقا : فانت لا تستطيع ان تحمل هؤلاء الصينيين على الاسراع فى اى عمل

فاجابه كونواى قائلا :

ــ اظن من الافضل لنا ان ننتظر ونرى ماذا سيأتينا به يومنا من الاحداث، ولعله كان من فرط التفاؤل ان نتوقع منهم ان يصنعوا لنا شيئا فى الليلة الماضية

ونظر اليه مالينسون بحدة وقال :

ــ اظنك تعتقد اننى كنت ابلها حينما اظهرت كل هذه العجلة ، لم استطع مغالبة ذلك ، اذ خيل الى ان هذا المخلوق الصينى مريب ، وما زال هذا هو اعتقادى فيه ، فهل افلحت فى الوصـــول معه الى شىء معقول بعد ان اوينا لمخادعنا ؟

ــ لم نلبث فى حديثنا طويلا ، اذ كان يغلب عليه الغموض والعزوف عن التورط فى معظم الموضوعات

ــ اذن سيستمر احتكاكنا اليوم به

فوافقه كونواى بغير حماسة قائلا :

ــ بلا شك ، ولكن فى الوقت الحاضر ارى هذا الافطار ممتازا !

وقرب نهاية الطعام دخل تشانج ، وبانحناءة يسيرة شرع يتبادل التحيات الاجتماعية المهذبة معهم ، وكان كونواى يفضل لو تكلم معه بالصينية ، لولا انه لم يفصح عن درايته بأى لغة شرقية ، لانه احب ان يحتفظ بهـذه الورقة فى الخفاء اذ قـد تنفعه يوما . وتكلم مالينسون فقال :

ــ اننى اريد ان اتصيد اولئك الحمالين على الفور ، هذا الصباح اذا لم يكن عندك مانع

فتمهل الصينى برهة ، الى ان اجابه قائلا :

ــ اننى آسف ان اقول لك ان هذا العمل سوف لا تكون له جدوى ، اذ اخشى انه ليس عندنا اشخاص لديهم الاستعداد ان يصحبوكم كل هذه المسافة بعيدا عن ديارهم

فهتف مالينسون قائلا :

ــ بحق السماء يارجل ، لا اخالك تنتظر منا ان نقتنع منك بهـذا الجواب

ــ انى آسف حقا ، ولكنى لا املك حلا آخر

فتدخل برنارد قائلا :

ــ يبدو انك وصلت الى هذا القرار فى غضون ليلة امس ، اذ انك لم تكن قاطعا فى قرارك بهذا الشكل فى الليلة الماضية

ــ ذلك انى لم اشا ان اصدمكم فى آمالكم وانتم فى حالة اجهاد شديد من جراء رحلتكم ، اما الآن ، بعد هذه الليلة المنعشة لقواكم ، فانى ارجو ان تكونوا اقدر على النظر الى الامور فى ضـوء اقرب الى حكم العقل

فقاطعه كونواى بحدة :

ــ اسمع ، ان هذا القبيل من الغموض لا يصلح معنا ، فانت تعلم اننا لا نستطيع ان نبقى هنا مدة غير محدودة ، ومن الجلى كذلك اننا لا نستطيع ان ننطلق من هنا بانفسنا ، فماذا تقترح علينا فى هـذه الحـالة ؟

فابتسم تشانج وقال :

ــ يا سـيدى العزيز ، انه من دواعى سرورى ان اقترح عليكم ما يدور فى ذهنى ، وعساك تذكر ما لوحظ بالامس من ان هناك



اتصالات بحكم الضرورة بين الحين والحين ، فيما بيننا وبين العالم الخارجى ، وهذه هى الحقيقة ، اذ لا بد لنا فى الفترة بعد الفترة من الحصول على اشياء معينة من اماكن نائية . ومن عادتنا ان نحصل عليها بالوسائل المناسبة . ولكن لن اثقل عليكم بذكر وسائلنا واجراءاتنا ، فالمهم فى الموضوع ان شحنة من هذا القبيل نتوقع وصولها الينا عن قريب . ولما كان الرجال الذين يجيئون بالشحنة سيعودون بعد ذلك على اعقابهم ، لهذا يبدو لى انكم ربما استطعتم الوصول معهم الى اتفاق . والواقع اننى لا استطيع ان افكر فى وسيلة احسن من هذا ، وآمل حين يصلون الى هنا . .

فقاطعه مالينسون قائلا :

ـ المهم متى سيصلون ؟

فقال له الصينى محتفظا بهدوئه :

ـ ان التكهن بتاريخ وصولهم بالضبط مستحيل طبعا ، فقد خبرت انت بنفسك جانبا من مصاعب التحرك فى هذه المنطقة

وتدخل كونواى مرة اخرى ليقول :

ـ فلنوضح هذه المسألة ، انك تقترح ان نستخدم بمثابة حمالين لنا ، اولئك الرجال الذين سيصلون عن قريب ، بشىء من البضائع لكم ، وهى فكرة لا بأس بها ، ولكن يجب ان نعرف المزيد من المعلومات ، واول سؤال هو : متى تتوقعون وصول هؤلاء الرجال ؟ والسؤال الثانى هو : الى اين سيحملوننا ؟

ـ هذا سؤال عليك ان توجهه اليهم

ـ هل سيأخذوننا الى الهند ؟

ـ لا يمكننى ان اقطع بقول

ـ حسنا ، بقى السؤال الذى نريد عنه جوابا : متى سيصلون الى هنا ؟ ولست اسأل عن التاريخ ، وانما انا فقط اريد فكرة تقريبية ،

هل من المحتمل ان يكون ذلك مثلا فى الاسبوع القادم ، او السنة القادمة ، او ما اشبه ؟

ـ ربما كان ذلك بعد شهر من يومنا هذا تقريبا ، وربما لم تزد المدة على شهرين

فانفجر مالينسون بمرارة :

ـ او ثلاثة اشهر او اربعة او خمسة .. وهل تظن اننا سوف نقنع بأن ننتظر هنا هذه القافلة او ما شئت ان تسميها ، كى تاخذنا الى مكان الله وحده يعلم ما هو ؟ وفى زمن غامض الموقع فى آماد المستقبل ؟

فأجابه تشانج بهدوئه المعتاد :

ـ ما لم يطرأ حادث ليس فى الحسبان ، سوف لا تزيد فترة الانتظار على المدة التى ذكرتها الآن

ـ ولكن .. شهران ! انقضى شهرين فى هذا المكان ؟ هذا فظيع ! لعمرى ان اسبوعين هما الحد الاقصى لاحتمالى

فجمع تشانج اطراف عباءته حول جسمه بحركة تنم عن وضع حد لمناقشة الموضوع ، ثم قال :

ـ انى آسف ، لم اكن ارمى الى اثارتك ، فديرنا سيستمر فى بذل اقصى ما يمكنه من الضيافة لكم جميعا لاى فترة من الزمن يقضى سوء طالعكم ببقائكم هنا ، وليس عندى مزيد من الكلام فى هذا الشأن

فرد عليه مالينسون بغضب قائلا :

ـ لا حاجة بكم الى ذلك ، واذا كنتم تظنون انكم تتحكمون فينا فسوف تكتشفون عن قريب قرب خطأ ظنكم ! .. سنحصل على الحمالين الذين نريدهم ، فلا تقلق ، وفى مقدورك ان تنحنى وتنثنى وتقول ما تشاء ..

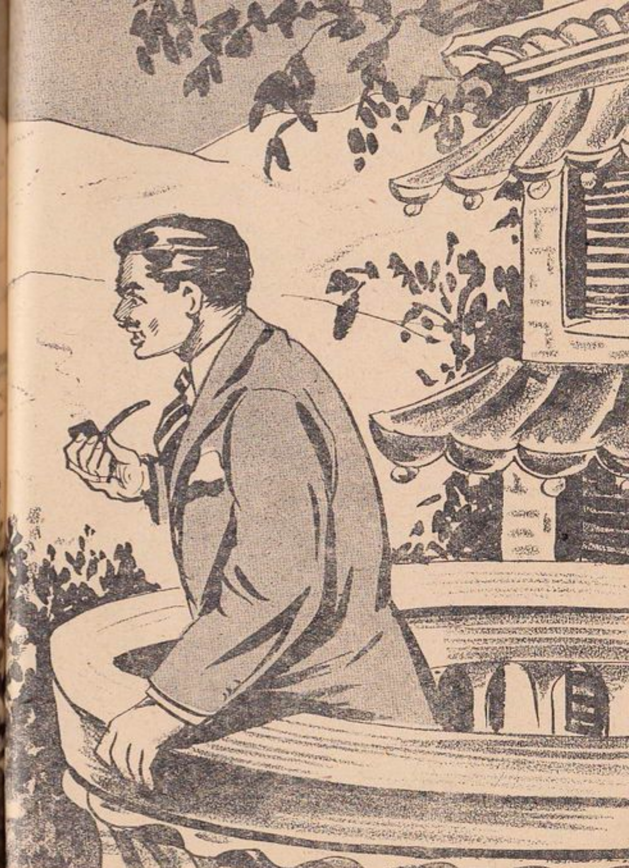
ولكن من حسن الحظ ان تشانج كان قد انصرف فى الوقت المناسب لكى يفلت من سماع ما هو ادهى !

وامضى الاربعة بقية الصباح يتدارسون الامر ، انها حقا صدمة لاربعة اشخاص ان يجدوا انفسهم مضطرين لقضاء شهرين فى ذلك الدير المنعزل على جبال التبت ، ولكن الصدمة لم تلبث ان فقدت تاثيرها بمرور بعض الوقت ، حتى ان مالينسون ذاته لم يلبث ان اسلم نفسه للقدر ، وقال لكونواى فى لهجة اليائس ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية ظاهرة :

ـ اصبح النقاش فى هذا الموضوع لا يفيد يا كونواى ، انت تعلم حقيقة شعورى ، لقد كنت احس دائما ان هناك شيء غريب فى هذا الامر . انه لشيء ملتو ، واننى اريد الخلاص من هذا المأزق فى اقرب فرصة ممكنة ..

فأجاب كونواى :

ـ ان الامر لسوء الحظ لايتوقف على ارادتنا ، فيجب ان نساير الظروف ونتحمل ، واذا اصر اهل



الدير على انهم لا يريدون ، او لا يستطيعون تزويدنا بالحمالين اللازمين لرحلتنا ، فما علينا الا ان ننتظر قدوم البعثة المزعومة ، ويؤسفنى ان اعترف بانه لا حيلة لنا فى هذا الامر ، ولكن اخشى ان تكون هذه هى الحقيقة

ــ اتعتقد انه يتحتم علينا البقاء هنا لمدة شهرين ؟

ــ ليس امامنا حل آخر ، كما اننى لا ارى ان البقاء هنا اسوأ من البقاء فى اية بقعة اخرى منعزلة من بقاع العالم . انه لسوء حظ بالطبع بالنسبة لاولئك الذين لهم اصدقاء واقارب يتوقون لرؤيتهم ، اما عن نفسى ، فلن يقلق على احد لحسن الحظ ، كما ان هناك آخرون يستطيعون القيام بعملى

***

والتفت الى الآخرين ، كانه يدعوهم الى بسط حالاتهم ، فلم يتكلم مالينسون ، بيد ان كونواى كان يعلم ان له والدين وخطيبة فى انجلترا ، مما يجعل بقاءه فى الدير امرا شاقا . اما برنارد فقد تقبل الموقف فى هدوء ومرح قائلا :

ــ حسنا ، اننى سعيد الحظ ايضا من هذه الناحية ، فان قضاء شهرين فى هذا المكان لن يقتلنى ، كما ان اهلى فى امريكا لن يقلقوا لغيابى ، فقد كنت دائما كاتب خطابات ردىء

ولكن كونواى قاطعه قائلا :

ــ هل نسيت ان اسماءنا سوف تنشر فى الصحف ؟ واننا سوف نعد فى نظر الحكومة من المفقودين ؟ وان القلق سوف يجتاح معارفنا الذين سوف يتخيلون حينئذ ابشع الخيالات ؟

***

وفى تلك اللحظة بدا القلق فجأة على وجه برنارد ، ولكنه لم يلبث ان ابتسم ابتسامة عريضة واجاب :

ــ اجل .. هذا حقيقى ، ولكن أؤكد لك انه لا تأثير له عندى

وكان كونواى سعيدا بهذا الرد ، وان كان الامر لا يزال يحيره بعض الشىء ، والتفت الى مس برنكلاو التى كانت لا تزال محتفظة بصمتها حتى تلك اللحظة ، واذا بها تقول :

ــ ان قضاء شهرين هنا ــ كما يقول مستر برنارد ــ ليس بالشىء المزعج على الاطلاق . ان جميع البلاد تستوى لدى الانسان الذى يعمل فى خدمة الله ، ان العناية الالهية قادتنى الى هذا المكان ، وانى لأعتبرها دعوة ربانية

***

ولقد سر كونواى لموقفها تجاه الظروف التى احاطت بهم ، وقال لها مشجعا :

ــ اننى واثق من ان الارسالية التى تتبعينها سوف ترحب بك كثيرا عند عودتك اليها ، فسوف تستطيعين حينئذ تقديم معلومات نافعة عن هذه البقاع

وتشعب الحديث بعد ذلك الى بعض النواحى العامة ، حتى دخل تشانج الى الحجرة ، وعرض عليهم مشاهدة مبانى الدير ، فأجابه برنارد قائلا :

ــ اننا نرغب فى ذلك بالتأكيد ، فقد يمضى وقت طويل قبل ان نزوركم مرة اخرى !

***

واستغرقت زيارة مبانى شانجرى لا وقتا طويلا ، ولم يكن هذا الدير اول الاديرة التى شاهدها كونواى ، ولكنه كان اكبرها وافخمها على الاطلاق . لقد استنفد مجرد مرورهم داخل الغرف والافنية ساعات بعد الظهر كلها ، على الرغم من ان كونواى لاحظ ان بعض القاعات قد اغلق دونهم . ولقد بهر كونواى بفخامة الدير وبالذوق

الفنى الذى يتجلى فى ابهائه ، كما ادرك ان به من الكنوز ما يتنافس عليه اكبر المتاحف واصحاب الملايين . ومن الاشــياء التى ادخلت السرور الى قلبه ، مكتبة تحتوى على آلاف الكتب من كل علم وفن وادب فى اللغات الفرنسية والالمانية والروسية ، الى جانب المخطوطات الصينية والشرقية . وقــد استرعى انتباهه بنوع خاص ، القسم الذى خصص من المكتبة للغة اهل التبت . وكان يفحص كتابا بهــذه اللغة ، حين راى تشانج ينظر اليه فى تمعن ويقول :

ــ انك اذن من طلاب البحث والدراسة . .

ــ اننى احب القراءة طبعا ، ولكن عملى فى السنوات الاخــيرة لم يتح لى وقتا كافيا للدراسة

ــ ولكنك لا تزال راغبا فيها ؟

ــ كلا . . وان كنت اجد فيها جاذبية احيانا

وهنا التقط مالينسون كتابا وقدمه الى كونواى قائلا :

ــ هاك خريطة لهذه الاراضى ياكونواى

فقال تشانج :

ــ لدينا مجموعة من هذه الخرائط تبلغ عــدة مئات ، وهى كلها تحت امركم ، غير انى استطيع ان اوفر عليكم مشقة البحث ، فأعرفكم انكم لن تجدوا موقع شانجرى لا على احداها

فقال كونواى :

ــ شىء غريب . . ولكن لماذا ؟

ــ هناك سبب وجيه ، ولكننى لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك

وابتسم كونواى ، ولكن الغضب اجتــاح مالينسون مرة اخرى ، فقال :

ــ مازلتم تزيدون الامر غموضا ، نحن الى الآن لم نر شيئا يستحق الاخفــاء

***

وفجأة خرجت مس برنكلاو عن صمتها الطويل ، وقالت :

ــ اننا نريد ان نرى الكهنة وهم يؤدون اعمالهم

فأجاب تشانج :

ــ يؤسفنى ان اقول ان هــذا مستحيل ، ان الكهنة لا يمكن ان يراهم احد خارج نطاق الديانة البوذية

فقال برنارد :

ــ فلن نتمكن لسوء الحظ من رؤيتهم

ولكن مس برنكلاو اردفت قائلة :

ــ ولكن ماذا يفعل هؤلاء الكهنة ؟

ــ انهم يكرسون انفسهم يا سيدتى للتاملات ، والبحث عن الحكمة

ــ ولكن هذا يعنى انهم لا يفعلون شيئا . .

ــ اذن فهم لا يفعلون شيئا يا سيدتى ! . .

ــ حسنا يا مستر تشانج ، لقد سررنا برؤية كل هذه الاشياء ، ولكنك لا تستطيع اقناعى بأن مكانا كهذا يعود بالفائدة على احد . . اننى افضل شيئا عمليا . .

ــ اترغبين فى تناول الشاى ! . .

***

وعجب كونواى لهذا الرد فى اول الامر ، وظنه تهكما من تشانج ، ولكنه لم يلبث ان وجد انه ليس كذلك . كان المساء يقترب ، وكان تشانج على حرصه بشأن غدائه ، مغرما بشرب الشاى ، شأن جميع

الصينيين . وما ان اقترح على الجماعة تناول الشاى ، حتى وافقوا جميعا على ذلك ، وتبعوه خلال افنية وابهاء عدة ، حتى وجدوا انفسهم امام منظر لا يبارى فى الرواء والجمال .. فامام صف من الاعمدة ، انحدرت عدة درجات لتؤدى الى حديقة بها حوض واسع من زهر اللوتس ، تحيط به مجموعة برونزية لحيوانات مختلفة ، كالاسود والحيات وذوات القرن ، فقال برنارد :

***

ــ انه لمكان رائع

وكان تشانج يقودهم الى شرفة كبيرة تحتوى على بيان ضخم ، ومجموعة من احدث الآلات الموسيقية ، ولقد توجت تلك الاعجوبة فى نظر كونواى كل ما رآه فى شانجرى لا . وكان تشانج يجيب على كل اسئلته فى صدق بالغ ، حتى تطرق الحديث الى الكهنة ، فقال له انهم يحبون الموسيقى الغربية اشد الحب ، ولا سيما موسيقى موزارت ، ويملكون مجموعة كبيرة من التسجيلات لعظماء الموسيقى الغربيين ، كما ان من بينهم من يستطيع العزف بمهارة على مختلف الآلات الموسيقية

***

ووقف برنارد مشدوها ، اذ كان يعجب من امكان نقل مثل ذلك البيان الضخم عبر الجبال الى ذلك المكان ، وسال قائلا :

ــ ايمكن ان يكون هذا البيان قد نقل الى هنا مارا بنفس الطريق الذى اتينا منه البارحة ؟

فأجابه تشانج :

ــ لا يوجد طريق آخر ..

ــ حسنا ، ان هذا ليفوق فى غرابته كل شىء آخر !

***

واخذ الخدم يحضرون اكواب الشاى المعطر ، ثم دخلت فتاة فى لباس صينى ، وتوجهت الى البيان مباشرة ، واخذت تعزف . ولاحظ كونواى ان لها انفا طويلا دقيقا ، وان عظام فكها بارزة ، وبشرتها شاحبة رقيقة ، وكان شعرها الاسود معقودا فى دقة خلف ظهرها . وكانت اثناء العزف هادئة ، لاتحرك من جسدها سوى اصابع يديها الطويلة . وما ان انتهت المعزوفة حتى انحنت فى رقة ، وغادرت المكان

وابتسم تشانج ، ثم قال :

ــ اسمها لوتسين ، وهى ماهرة فى الموسيقى الغربية ، مع انها مثلى ، لم تصل الى مرتبة الكهنة بعد

فقالت مس برنكلاو :

ــ هذا شىء طبيعى ، فانها تبدو طفلة صغيرة

ولم يجب تشانج .. وقال مالينسون بعد فترة من الصمت :

ــ ان دينكم هذا لغريب

واستمر احتساء الشاى دون حديث ، وكان صدى الحان البيان لا يزال يرن فى آذانهم ، وما لبث تشانج ان نهض ليقودهم خارج المكان وهو يقول :

ــ ارجو ان تكون هذه الجولة فى انحاء الدير قد امتعتكم ، كما ارجو ان تعتبروا محتويات المكتبة ، وغرفة الموسيقى ، تحت تصرفكم خلال اقامتكم بيننا

***

وفى تلك الامسية ، بعد العشاء ، اخذ كونواى يسير فى ابهاء الدير الهادئة التى يغمرها ضوء القمر ، وكان الهواء باردا ساكنا ، وبدت قمة كاراكال العظيمة اقرب مما تلوح فى ضوء النهار . وكان كونواى محيرا مشتت البال على الرغم من انه كان سعيدا من الناحيتين : الجسدية والعاطفية . واخذت الحوادث الغريبة التى وقعت له مع

رفاق الصدفة الثلاث تتركز فى ذهنه . انه لم يفهم هذه الحوادث ، ولكنه ادرك انه يجب ان يفهمها . واخذ يتطلع من فوق حافة الشرفة الى الفضاء العريض الذى يمتزج فيه سـواد الليل بزرقة السماء الصافية . وكان الوادى المنخفض يبعد عنه حوالى الميل . واتجهت افكاره نحو ذلك الوادى : هل سيسمح له بأن يهبط اليه ليرى معالم المدينة التى يتحدثون عنها ؟

***

وفجاة حمل اليه الهواء اصوات صادرة من اسفل . واخذ ينصت فى انتباه ، فسمع دقات اجراس وطبول مختلطة بأصـوات اخرى مختلفة . وكانت تلك الاصوات تخفت وتتلاشى فى الهواء ، ثم تعود تسمع من جديد . ومن نافذة عالية فوق الشرفة استطاع ان يرى ضوء مصـباح : هل يكرس الكهنة انفسهم للتـأملات والبحث عن الحكمة فى ذلك المكان ؟ وهل يقومون الآن بشعائر دينهم ؟ ولاح له ان فى الامكان حل ذلك اللغـز بالخروج من اقرب باب ، والتوغل فى انحاء الدير ، ولكنه كان يدرك ان حركاته مراقبة ، وأن اثنين من اهل التبت يحرسانه من مـكان قريب . وانبعثت همـسـات الطبول والاجراس من جديد . وسمع كونواى رجلين ، احدهما يسأل زميله عن الامر ، فيجيبه الآخر قائلا : « لقد دفنوا تالو » .. وبعد فترة من الصمت استأنف الرجل اسئلته التى لم يسمعها كونواى ، وانما سمع الردود التالية : « لقد مات فى الخارج » .. « لقد اطاع اوامر الكهنة العليا فى شانجرى لا » .. « لقد سافر على متر الرياح فوق الجبال الشاهقة » .. « احضر غرباء ايضا » .. « لم يكن تالو يخشى الرياح فى الخارج ، ولا البرد والصقيع » .. « على الرغم من انه سافر الى الخارج منـذ وقت طويل ، الا ان وادى القمر الازرق لا يزال يذكره » !

***

ولم يفهم كونواى شيئا مما قيل بعد ذلك . وبعد قليل عاد الى

غرفته ، لقد سمع ما يكفى لان يقوده خطوة اخرى فى طريق حل اللغز الغامض الذى اكتنف حضورهم الى ذلك الدير . ان ذلك الطيار الذى هرب بهم من باسكول لم يكن اذن مجنونا ، او احد الفارين من مستشفى المجاذيب ، لقد كان الهرب بهم امرا مدبرا معدا ، نفذ طبقا لتعليمات شانجرى لا ، كما كان الطيار المتوفى معروفا بالاسم لدى اولئك الذين يعيشون فى الدير .. لقد كان واحدا منهم ، او احد المتصلين بهم اتصالا وثيقا ، كما يفهم من نواحهم عليه ، واقامتهم الشعائر الدينية لوفاته . ولكن ما هو الغرض الذى يختفى وراء تدبير مثل هذه الفعلة الجريئة النكراء ؟ لماذا يحمل اربعة من المسافرين الذين جمعتهم الصدفة فى طائرة تتبع الحكومة البريطانية ، الى هذا المكان الغريب المنعزل ؟

***

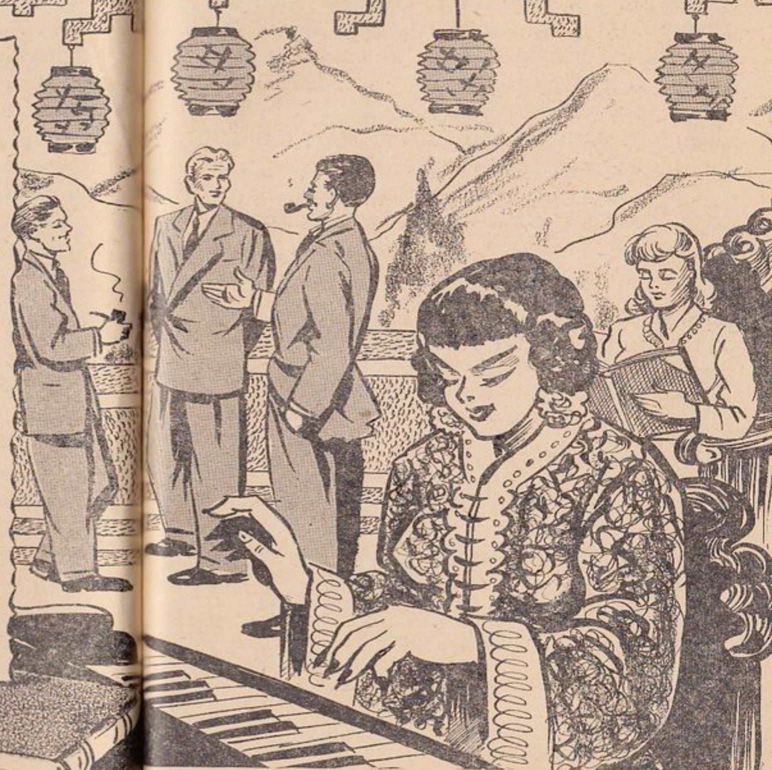
على ان كونواى صمم فى تلك اللحظة على شىء واحد : هو الا يطلع احدا من رفاقه ، او من اهل الدير ، على اكتشافه ، فان هؤلاء لن يتمكنوا من مساعدته ، وأولئك لن يقدموا هذه المساعدة بطبيعة الحال

مر على الجماعة اسبوع فى شانجرى لا ، وقال لهم برنارد ذات يوم :

ــ اننا اسعد حظا من كثيرين اضطرتهم الظروف الى البقاء فى اماكن اردأ بكثير من هذا المكان

ونحو نهاية الاسبوع كانت الجماعة قد اعتادت حياة الدير بعض الشىء ، وعلى ان تقضى النهار فيما يشبه الروتين المتكرر كل يوم . ولقد ساعدهم تشانج على قتل الملل والسآمة باصطحابهم فى رحلات قصيرة حول الدير ، كما كان يسليهم اثناء الطعام بحديثه الطلى

ولقد سر كونواى ان يجد ان الوادى الاخضر مفتوح للزوار ، غير ان صعوبة الهبوط اليه جعلت زيارته مستحيلة . ولقد قضت الجماعة يوما بأكمله على حافة الهضبة فى صحبة تشانج ، يتفحصون ارض الوادى الخضراء



ذات المزروعات المختلفة . واخذ كونواى يتحدث ردحا طويلا من الوقت مع تشانج عن عادات سكان الوادى وطرق معيشتهم . وكان تواقا لمعرفة نظام الحكم فى ذلك الوادى . ولقد اجابه تشانج على جميع اسئلته فى ادب ورقة ، فعرف ان الدير يحكم الوادى حكما لينا دون حزم او صرامة ، وان هذا اللون من الحكم نجح نجاحا ملحوظا فى ذلك الفردوس الخصيب . وعجب كونواى من نظام الادارة وتنفيذ القانون فى الوادى ، عندما عرف بأنه لا وجود للجنود او رجال البوليس ، فأجابه تشانج بأن الجريمة فى ذلك المكان نادرة الوقوع ، وان روح القناعة والنيات الطيبة تسود اهله ، واردف انه فى حالة وقوع جريمة ما ، فان عقاب المذنب هو النفى من الفردوس الخصيب ، وهو عقاب صارم قلما يوقع على احد !

واخذت مس برنكلاو تقتل الوقت بتعلم لغة أهل التبت . ولقد تقدمت فى هذا الدرس تقدما ملحوظا بمعونة الصينى وتشجيع كونواى . كما ان كونواى وجد ما يشغل به نفسه ، بالاضافة الى العمل الرئيسى الذى كرس له نفسه فى ذلك المكان ، وهو حل اللغز الذى احاط وجودهم فيه ، وترتيب امر عودتهم الى بلادهم . فاخذ يمضى الايام الدافئة المشمسة بين المكتبة وحجرة الموسيقى ، ولم يلبث ان خرج من ذلك بما اكد له رسوخ قدم اولئك الكهنة فى الثقافة والفن . وقدر كونواى عدد المجلدات الموجودة فى المكتبة بنحو عشرين او ثلاثين الفا . ولما سأل عن الكتب الحديثة التى اضيفت الى المكتبة ، اجابه تشانج ان لديهم من الكتب ما نشر حتى منتصف عام ١٩٣٠ ، وان هذه الكتب وصلت الى الدير اخيرا ، وانها ستوضع عما قريب على رفوف المكتبة ، واضاف تشانج :

ـ وهكذا ترى اننا نساير العصر ولا نتخلف عن ركب الزمن

فأجاب كونواى وهو يبتسم :

ـ يوجد كثيرون لا يوافقونك على هذا الراى ، فكثير من الاحداث وقع فى العالم منذ انصرام العام الماضى كما تعلم ..

ـ لم يحدث شىء ذى اهمية يا سيدى لم نتوقع حدوثه منذ عام ١٩٢٠ او لا يمكن فهمه بصورة أفضل فى عام ١٩٤٠

ـ اعتقد يا تشانج اننى بدات افهمك . ان الزمن يعنى بالنسبة اليك شيئا اقل مما يعنى للآخرين . فانا عندما اكون فى لندن ، قد لا اهتم بمطالعة آخر طبعة تصدر من الصحف ، وانت فى شانجرى لا لا تهتم بمطالعة الصحف التى ظهرت منذ عام .. كلا الاتجاهين يبدو لى من الحكمة بمكان ، وعلى فكرة ، كم مر من الوقت منذ استقبلتم آخر زائر فى هذا المكان ؟

ـ هذا ما لا استطيع ان اقوله للأسف يا مستر كونواى

كانت هذه العبارة هى النهاية التقليدية لكل محادثة مع تشانج .. ولقد وجدها كونواى اقل اثارة له بمرور الوقت ، كما بدا يعجب بتشانج ويميل اليه كلما تعددت مقابلاتهما . على ان الذى كان لا يزال يحيره هو عدم رؤيته لمعظم سكان الدير

لقد كان يرى لوتسين الصغيرة بين الحين والآخر ، عند زيارته لقاعة الموسيقى ، ولكنها كانت لا تعرف اللغة الانجليزية ، ولم يكن هو راغبا فى اظهار معرفته باللغة الصينية . وكانت تنصت باهتمام بالغ لعزف كونواى على البيان ، وكان من المستحيل ان يعرف ما يجول بذهنها ، كما كان من الصعب التخمين بحقيقة سنها

وكان مالينسون كثيرا ما يذهب الى حجرة الموسيقى لقتل الوقت . وكان يعجب من وجود لوتسين فى ذلك المكان ، فقال لكونواى ذات مرة :

ـ لا استطيع ان اعرف ماذا تفعل هذه الفتاة هنا . ان كهانة هؤلاء البوذيين قد تجذب اليهم رجلا مسنا مثل تشانج ، ولكن ما هى جاذبيتها بالنسبة لفتاة كهذه ؟ منذ متى حضرت الى هذا الدير يا ترى ؟

ـ لست ادرى .. ان هذا من الاشياء التى يخفونها منا

ـ اتعتقد انها تحب البقاء هنا ؟

ـ اعتقد انها لا تكره ذلك على اية حال

وبعد برهة قال مالينسون فجاة :

ـ على فكرة ، كم تقدر عمر تشانج ؟

ـ بين التاسعة والاربعين والمائة والتاسعة والاربعين !

***

وذات صباح اخذ كونواى يتحدث عن سرور برنارد ببقائه فى الدير ، فقال له مالينسون :

ـ الواقع ان ضحكه المستمر يثير اعصابى ، وانا شخصيا اظن ان هذا شيء غريب ، فهو لا يقلق لشيء البتة ، ويبدو انه سعيد جدا فى هذا المكان . . من اين اتى هـذا الرجل . . اقصد من هو ، وماذا تعرف عنه ؟

ـ لا اعرف عنه اكثر مما تعرف . لقد فهمت انه قدم من ايران ، وانه كان احد الباحثين عن زيت البترول هناك

ـ هل رايت جواز سفره ؟

ـ من الجائز ان اكون قد رايته ، ولكنى لا اتذكر على اية حال ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟

فضحك مالينسون وقال :

ـ اخشى ان تظن اننى اتدخل فيما لا يعنينى ، ولكن قضاء شهرين فى مكان منعزل كهذا يكفيان لهتك اسرارنا جميعا

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

ـ اريد أن أقول أن برنارد يسافر بجواز سفر مزور ، وان اسمه ليس برنارد على الاطلاق

فرفع كونواى حاجبيه فى اهتمام وقال :

ـ حسنا ، ومن تظنه اذن ؟

ـ انه يدعى كالمرز بريانت

ـ أهذا حقيقى ؟ وما الذى حملك على هذا الظن ؟

ـ لقد سقطت حافظته هذا الصباح ، فالتقطها تشانج واعطانى اياها ظنا منه انها تخصنى ، فوجدتها متخمة بقصاصات الصحف ، ووقع بعض هذه القصاصات بينما كنت اتناول الحافظة ، وما ان وقع بصرى عليها حتى وجدتها جميعا تتحدث عن بريانت ، كما حوت احداها صورة تشبه برنارد تمام الشبه ، ولا تختلف عنه الا فى الشارب

ـ وهل ذكرت اكتشافك هذا لبرنارد نفسه ؟

ـ كلا ، لقد اعطيته الحافظة بلا تعليق

ـ وهكذا فان الصورة هى كل ما يثير شكوكك ؟

ـ اجل . .

ـ لا اعتقد اننى استطيع ان اتهم شخصا استنادا الى هذا الدليل وحده . وقد تكون على حق بالطبع ، فاذا كان برنارد هو فى الحقيقة بريانت ، فهذا يفسر لنا سروره بالاقامة فى هذا المكان . انه لن يجد مكانا افضل واكثر امنا من هذا ليختفى فيه

ولم يرض مالينسون عن استقبال كونواى البارد لهذا النبأ الذى ظنه خطيرا ومثيرا للغاية . ولم يلبث ان قال :

ـ حسنا ، وماذا تنوى ان تفعل بعد هذا الاكتشاف ؟

وفكر كونواى لحظة ، ثم قال :

ـ ليس لدى فكرة ، وربما لا افعل شيئا على الاطلاق ، فماذا استطيع ان افعل على اى حال ؟

ـ سحقا لذلك ، اذا كان الرجل هو بريانت ، فاننى . .

ـ يا عزيزى مالينسون : هب أنه نيرون ، ماالذى يعنينا من ذلك فى الوقت الحاضر ؟ لو كنت شككت فيه فى باسكول لكنت حاولت

الاتصال بالبوليس تادية للواجب العام ، اما الآن ، وفى هذا المكان . .

ــ او لا تظن ان هذه نظرة بليدة الى الامر ؟

ــ لا يعنينى ذلك ، طالما هى نظرة معقولة . وانا انصحك الا تبوح بشىء عن اكتشافك هذا

ــ ولكن الرجل لص عالمى ، وانا اعرف كثيرين فقدوا ثرواتهم بسببه

فهز كونواى كتفيه . فلم يكن يهتم كثيرا بأخبار جماعة بريانت الضخمة فى نيويورك ، ولكنه يذكر انها افلست ، وتسببت فى خسارة بلغت حوالى مائة مليون دولار . ولما كان بريانت مسئولا عن هذه الخسارة الى حد كبير ، فقد صدرت الاوامر بالقبض عليه فى امريكا ثم فى ستة دول اخرى بعد ان هرب من الولايات المتحدة الى اوربا

واستطرد كونواى قائلا :

ــ حسنا ، انك ان اخذت بنصيحتى ولم تبح بشىء عن هذا الامر ، فان هذا لن يكون من اجل خاطره هو بقدر ما هو لمصلحتنا نحن ، وتذكر انه قد لا يكون بريانت على الاطلاق

***

ولكن الرجل كان بريانت بعينه ، فقد اكتشفوا الامر فى ذلك المساء عقب تناول العشاء . وكان تشانج قد ترك الجماعة ، كما تحولت مس برنكلاو الى ركن بعيد من الغرفة لتدرس قواعد لغة اهل التبت . وواجه الرجال الثلاثة بعضهم بعضا وهم يحتسون القهوة ويدخنون لفائف التبغ . وكان برنارد عابسا لا يلقى بالنكات كعادته . وبدا لكونواى ان من الواضح ان مالينسون لم يستطع كبح جماح نفسه ، ومعاملة الامريكى كانما لم يحدث شىء ، كما كان من الواضح ايضا ان برنارد قد فهم كل شىء

وفجأة القى الامريكى بسيجارته وقال :

ــ اظن انكم جميعا قد عرفتم من انا

وشاب وجه مالينسون الاحمرار ، ولكن كونواى اجاب فى هدوئه المعتاد :

ــ اجل ، انا ومالينسون نعرف ذلك

ــ انه لاهمال منى ان ادع تلك القصاصات فى متناول الناس

ــ اننا جميعا معرضون لارتكاب مثل هذا الخطأ فى بعض الاحيان

ــ حسنا ، يبدو لى انك لا تعير هذا الموضوع كبير التفات

وسكت كونواى ، غير ان مس برنكلاو لم تلبث ان قالت بعد فترة من الوقت فى صوت مرتفع :

ــ أؤكد لك اننى لم اعرف من انت يا مستر برنارد ، ولكننى ادركت منذ اللحظة الاولى انك تسافر متنكرا

وتطلع الجميع اليها متسائلين ، فاستأنفت حديثها قائلة :

ــ اننى اذكر عندما قال مستر كونواى ان اسماءنا جميعا سوف تنشر فى الصحف ، انك قلت ان هذا الامر لن يؤثر فيك ، لقد ادركت حينئذ ان برنارد قد لا يكون اسمك الحقيقى

وانتزع المجرم من فمه ابتسامة مغتصبة وهو يشعل سيجارة اخرى ، ثم قال :

ــ انك يا سيدتى تصلحين ان تكونى من رجال البوليس السرى . لقد ادركت وضعى الحالى ، وعبرت عنه بصورة مهذبة ، ولكنى لست آسفا على اكتشافكم حقيقة امرى . لقد كنتم جميعا ظرفاء معى ، مما يجعلنى غير راغب فى احداث اى شغب او مضايقة ، ويبدو ان مصيرنا جميعا مرتبط الآن ، وسيظل كذلك فترة من الوقت ، طالما نحن فى هذا المكان ، ولهذا يجمل بنا التعاون معا خلال هذه الفترة ، اما ما يحدث بعد ذلك فأعتقد اننا نستطيع ان نتركه للظروف

وسر كونواى لهذا القول المعقول ، وتطلع الى برنارد فى شىء كثير

الارتياح ، لقد كان من العسير على المرء ان يظن ان هـــذا الرجل البدين المرح ، الذى تلوح عليه سيماء الابوة والحنـــان ، لص كبير ومغامر عالمى . ولم يلبث كونواى ان قال لبرنارد :

ـ اجل .. ان ما قلته هو عين الصواب بلا شك

وتمدد برنارد فى كرسيه وهو يضحك ويقول :

ـ على ان ما حـــدث لغريب حقا ، اقصـــد ما حدث لى . لقد استطعت الافلات من البوليس عبر القـارة الاوربية ، ولقد كادوا يظفرون بى فى فينا . وكانت المطاردة تبدو لى شائقة فى بادىء الامر ، ولكنها ارهقت اعصابى فى النهاية . غـير انى استطعت ان استريح بعض الشيء فى باسكول ، حيث تمكنت فى غمرة الثورة ان اتوارى عن اعين البوليس

وقال كونواى وهو يبتسم :

ـ ولكن نيران البنادق والمسدسات كانت تحيط بك ..

ـ اجل ، وهذا ما اثار قلقى فى النهاية . لقد كنت حائرا فى الواقع بين لقاء الموت فى باسكول ، او التحليق فى طائرة تتبع حكومتكم ، ثم تسليم يدى للقيود الحديدية التى تنتظرنى عندما اهبط الى الارض . لقد كنت فى الواقع غير راغب فى كلا الامرين

ـ اذكر انك كنت غير راغب فى السفر فعلا

وضحك برنارد مرة اخرى ثم قال :

ـ حسنا ، هذا ما حدث ، وهكذا ترون ان تغيير اتجـاه الطائرة التى اقلتنا الى هذا المكان لم يزعجنى كثيرا . اننى اعترف انه لغز من الطراز الاول ، ولكنه حظ حسن بالنســبة لى ، ولست ممن يتذمرون عندما يكونون فى ظروف طيبة

فقال كونواى :

ـ انه لتصرف حكيم ، ولكن يبدو انك بالغت فى الامر ، فقد اثار دهشتنا جميعا مرحك الزائد

ـ حسنا ، كنت فى الواقع راض عن حالى ، فهـــذا ليس بالمكان الردىء ، بل انه لمكان جميـــل هادىء ومناسب للراحة والتغيير ، فضلا عن ان احدا لا يستطيع ان يطلبنى بالتليفون هنا ..

فرد كونواى فى جفاء :

ـ اعتقد ان زبائنك يتوقون الى ان يلتقوا بك ، اننى اعترف اننى لست خبيرا فيما يسمونه علم الاقتصاد ، ولكن ..

فصـــاح الامريكى :

ـ علم الاقتصاد ؟ .. انه محض هراء !

ـ هكذا كنت اظن

ـ اسمع يا كونواى ، اننا نفعل اقصى ما نستطيع ، ولكن عنـــدما يتحول السوق ضدنا ، ماذا يمكن ان نفعل ؟.. اننا حينئذ نفقـــد كل شيء ..

فقال مالينسون فى حدة :

ـ ولكنك ايضا اضعت اموال الآخرين

ـ هذا ما حدث فعلا ، لانهم جميعا كانوا يريدون الحصـــول على كل شيء مقابل لا شيء ، ولم يكن لديهم الذكاء الكافى لتحقيق هـــذه الفـــرص بانفسهم

ـ اننى لاأوافق على هذا الراي ، لقد ضاعت أموالهم نتيجة ثقتهم بك ، فقد ظنوا انها معك فى ايد امينة

ـ لاامان فى اي مكان ياسيدى . اننى لم أستطع تجنب الافلاس ، تماما كما لم تستطع انت تجنب ما حدث بعد مغادرتنا مدينة باسكول

وهنا قاطعهم كونواى بسرعة قائلا :

ـ يحسن الا نتناقش فى هذا الامر . اننا هنا نجتاز الآن المغامرة معا ، ولدينا من المشاكل الخاصة ما يكفى للتفكير وقطع الوقت ، على انه من الغريب ان تجد بين اربعة من الناس ، التقوا بمحض الصدفة :



وحملوا على الرغم من ارادتهم نحو الف ميل ، اقول من الغريب ان تجد بين هؤلاء الاربعــة ، ثلاثة راضين عن حالهم وما وصلوا اليه . فانت مسرور لانك تريد مكانا للراحة ومخبأ امينـا من البوليس ، والآنسة برنكلاو تشعر بدعوة الهية لتبشير اهل التبت الوثنيين ..

فصاح مالينسون :

ــ ومن هو الشخص الثالث الذى يرضى عن هذه الحال ، لعلك لا تظن اننى هو يا كونواى ؟

فأجاب كونواى :

ــ كلا ، فأنا اقصد نفسى ، والسبب فى هذا بسيط للغاية ، الا وهو اننى احب العيش فى هذا المكان

والواقع ان كونواى كان قد اخــذ يحس بالراحة والسعادة فى شانجرى لا . كانت تجتاحه موجة من الهدوء النفسى والراحة العقلية الناعمة عقب تريضه فى ختام كل يوم فى شرفة غرفتــه ، أو بجانب احواض اللوتس اليانعة . لقد كان عقله فى شغل شاغل منذ عدة ايام بالدير وسكانه ، وكان على وشك ان يصل الى قرار معين فى امرهم ، ولكن التفكير العميق لم يورثه الاضطراب او الاجهــاد ، بل اورثه الراحة والهدوء النفسى الشامل

لقد كان الهدوء العميق يشمل كل شىء فى شانجرى لا ، وكانت النجوم ترصع السماء وترسل ضوءها الساطع الى الارض . وكانت قمة كاراكال تكتسى بغلالة رقيقة من الوهج الازرق . ولقــد ادرك كونواى حينئذ انه لو وصل الحمالون من العالم الخارجى الآن، فانه لن يسر لذلك كثيرا ، لانه لا يريد ان يتعجل الرحيل

وفجأة ، وبينما هو مستغرق فى افكاره ، احس باقتراب تشانج ، وبدا الصينى الحديث قائلا :

ــ اننى فخور بأن احمل اليك اخبارا هامة يا سيدى

فأجاب كونواى :

ــ اذن فقد حضر الحمالون قبل وقتهم المحدد .. اليس كذلك ؟

وكان تشانج يتحدث بانفعال قائلا :

ــ يا سيدى العزيز ، اننى اهنئك ، كما اننى سعيد ، اذ اعتقد اننى مسئول الى حد ما عن النتيجة التى وصلنا اليها ، فلقد قرر الكاهن الاعظم اخيرا ، وبعد توصياتى القوية المتكررة ، ان يراك فى الحال

وظهر الاستغراب فى عينى كونواى وهو يتساءل :

ــ ما الذى حدث ؟

ــ لقد ارسل الكاهن الاعظم فى طلبك

ــ حسنا ، وماالذى يدعو الى الدهشة فى هذا الامر ؟

ــ لانه امر غريب شاذ ، حتى انا الذى كنت استحثه لاتمام هذه المقابلة ، لم اكن اتوقع ان تتم بهذه السرعة . لقد حضرت الى هنا منذ اسبوعين فقط ، ولكنه سوف يستقبلك الآن ! .. ان هذه المقابلة لم تتم بهذه السرعة لاى مخلوق قبلك

ــ لا يزال الامر غامضا بالنسبة الى ، اننى اعرف اننى سـوف اقابل كاهنكم الاعظم ، ولكن هل هناك نبأ آخر ؟

ــ الا يكفيك هذا ؟

فضحك كونواى وقال :

ــ أؤكد لك اننى مسرور بهـذا الامر ، وهو امر يشرفنى ، متى سأحظى بهذه المقابلة ؟

ــ فورا .. لقد ارسلنى لكى احضرك اليه

ــ اليس الوقت الآن متأخرا ؟

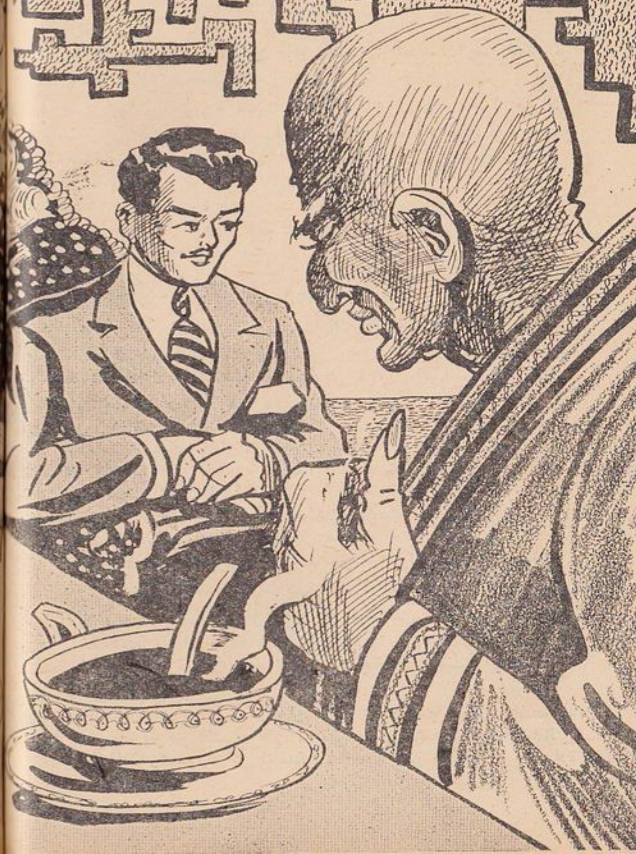
ــ هذا لا يهم يا عزيزى ، فانت سوف تدرك اشياء كثيرة حالا ، ولسوف تنتهى بالنسبة اليك تلك الفترة المملة فى حياتك معنـا فى هذا الدير . صدقنى يا عزيزى انه كان ثقيلا على نفسى جدا ان اضطر الى اخفاء كثير من المعلومات التى كنت تطلبها منى فى شتى المناسبات . أما الآن فانه يسرنى ان هذه الفترة الحرجة قد انتهت ولن تعود

فقال كونواى :

ــ انك لشخص غريب الاطوار يا تشانج ، ولكن هيا بنا نذهب ، ولا تهتم بالمزيد من الشرح الآن . اننى على استعداد تام ، كما اننى اقدر موقفك وشعورك كل التقدير .. هيا ارنى الطريق الى سيادة الكاهن الاعظم ..

الحقيقة ان هدوء كوكونواى الظاهرى كان يخفى لهفة جعلت تنمو شدتها وهو يصحب تشانج مخترقين الافنية الخاوية . فان صح أن لكلمات ذلك الصينى أى معنى من المعانى ، فهو اذن على عتبة كشف، وعماقريب سيتسنى له ان يعرف ، ان كانت نظريته التى لم تزل فى طور التكوين اقل استحالة مما يبدو عليها ، وعلاوة على هذا ، لاشك ان المقابلة حرية أن تكون مقابلة شائقة . وفطن الى أن تشانج كان يخترق به حجرات لم يكن رآها من قبل ؛ وجميعها تغلب عليها العتمة وتبدو لطيفة جدا فى ضوء المصباح .

ثم صعدا سلما حلزونيا الى باب طرقه الصينى ، فاذا به يفتح على يد خادم من أهل التبت . وهذا القسم من الدير واقع فى طابق أعلى من بقية البناء ، ولم يكن حظه من التجميل ، تجميلا



ينم عن ذوق رفيع ، باقل من حظ سائر اجزاء الدير ، بيد ان اهم ما يسترعى النظر فيه هو ذلك الدفء الجاف الى حد انك تحس له وخزا ، كانت جميع النوافذ قد اغلقت اغلاقا محكما ، فى الوقت الذى كانت آلة تدفئة بالبخار تعمل بأقصى قوتها

ومال تشانج على اذن كونواى ، وهمس قائلا :

— ان اللاما الاعظم سيستقبلك على انفراد

وفتح الباب بيده كى يدخل منه كونواى ، ثم اغلقه بعد ذلك بهدوء تام ، حتى ان انصرافه من المكان كاد لا يكون له فى الاحساس اثر . ووقف كونواى مترددا بضع ثوان قبل ان يتمكن من تعويد عينيه على كل تلك العتمة ، فلما الفت عيناه الظلام راى امامه حجرة منخفضة السقف ، ستائرها ثقيلة ، واثاثها البسيط عبارة عن منضدة ومقاعد . وعلى مقعد من هذه المقاعد تراءى لعينيه شخص جالس فى سكون ، ضئيل الجسم ، شاحب اللون ، متغضن الوجه ، فكأنه شكل تجلوه للعين صورة عتيقة باهتة

واحس كونواى دوارا تحت نظرة هاتين العينين العتيقتين ، فخطا بضع خطوات الى الامام ، ثم توقف . فأصبح شاغل المقعد اقل غموضا فى شكله العام . واذا به رجل ضئيل الجسم مسن فى ملابس صينية ، وفى طياتها الفضفاضة يستقر جسمه الناحل

وهمس ذلك الرجل بلغة انجليزية ممتازة :

— هل انت مستر كونواى ؟

فأجاب كونواى قائلا :

— نعم ... ياسيدى ...

فاستطرد ذلك الصوت يقول :

— انه ليسرنى أن أراك يامستر كونواى ، وقد أرسلت اليك لانه خطر لى انه يحسن بنا أن نتحدث معا ، فأرجو منك أن تجلس

بجانبى ولا يعتريك خوف . فانا رجل مسن ولا يمكننى أن أوذى احدا

فكان رد كونواى على ذلك :

— انى أشعر بما نالنى من شرف عظيم لاستقبالك اياي ..

فقال الشيخ بصوته الذى يشبه الهمس :

— أشكرك يا عزيزى كونواى ، فهذه اللحظة كما قلت لك تتيح لى سرورا فائقا . ولئن كان بصرى الآن قد امسى ضعيفا ، ولكن صدقنى حين اقول لك اننى مستطيع ان اراك فى ذهنى ، كاستطاعتى ان اراك راى العين ، واحسبك كنت متمتعا بأوجه الراحة فى شانجرى لا منذ قدومك الى هنا

— الى اقصى حدود الراحة

يسعدنى هذا ، ولا شك ان تشانج قد بذل غاية وسعه من أجلك ، وقد وجد فى ذلك سرورا عظيما ايضا . واخبرنى انك القيت اسئلة كثيرة عن جماعتنا وأحوالها

— انى بلا شك مهتم بها جدا

— اذن سيكون من دواعى سرورى ان سمحت لى بجانب من وقتك ، أن أقدم لك بيانا موجزا عن مؤسستنا

— ليس هناك ما هو اجدر بالتقدير عندى من هذا

— هذا ما اعتقدته ورجوته .. ولكن قبل كل شيء ..

ثم حرك احدى يديه باشارة هينة جدا ، وعلى الفور دخل خادم ليمد معدات احتساء الشاى الرشيقة الانيقة . فاظهر كونواى دراية بها واحترامه لها . فقال له الشيخ :

— ارى أن اساليبنا مألوفة لك ؟

— لقد عشت فى الصين بضع سنين

— الم تخبر بذلك تشانج ؟

— كلا ..

— اذن لماذا اضفيت على شرف هذا التعريف ؟

فصمت كونواى قليلا ، ثم اجاب :

— لسبب بسيط ، فانا بصراحة لا تعليل عندى لذلك ، سوى اننى لابد قد شعرت برغبة فى اخبارك ...

وبعد محادثة ذات صيغة عامة اثناء تناول الشاى ، استأنف اللاما الاعظم الكلام ، فقال :

— ربما كنت ياعزيزى كونواى على دراية بالخطوط العامة العريضة لتاريخ بلاد التبت ، ولابد انك تدرى على كل حال ان الديانة المسيحية ذاعت فى طول آسيا وعرضها خلال العصور الوسطى ، وأن ذكرى تلك الديانة بقيت بعد ان انتهى امرها بصورة فعلية . ففى القرن السابع عشر كان نفوذ المسيحية قائما فى منطقة شاسعة . وفى سنة ١٧١٩ توجه اربعة من الرهبان من بكين للبحث عما قد يكون من آثار لتلك العقيدة ، لعلها باقية فى الاقاليم الداخلية البعيدة عن الساحل

« وظل الرهبان الاربعة مسافرين فى اتجاه جنوبى غربى مدى شهور كثيرة ، فواجهوا صعابا تستطيع ان تتصورها . ومات ثلاثة منهم فى الطريق ، وكان الرابع غير بعيد من الموت حين تعثرت قدماه مصادفة فى الممر الصخرى الذى بقى الى اليوم المنفذ العملى الوحيد الى وادى القمر الازرق . وكم كان سروره ، وكانت دهشته ، حين وجد هناك سكانا دمثين ميسورى الحال ، أسرعوا على الفور بتقديم ما كنت اعتبره دواما اعرق تقاليدنا الا وهو كرم الضيافة للغرباء ..

« وسرعان ما استعاد الراهب الصحة والعافية ، وشرع يرشد الاهالى ، وكانوا يدينون بالبوذية ، بيد أنهم كانوا على استعداد للاصغاء اليه ، وقد لقى نجاحا هائلا

« وفى ذلك الوقت كان دير عتيق للاما قائما على هذا الجبل نفسه . فخطر لذلك الراهب أن ينشىء ديرا مسيحيا فى الموضع نفسه . وتحت اشرافه تم اصلاح الابنية العتيقة ، وأعيد بناؤها على نطاق واسع ، وبدا هو نفسه يقيم هنا منذ سنة ١٧٣٤ ، وكان فى ذلك الوقت فى العام الثالث والخمسين من عمره

« والآن دعنى أحدثك بمزيد من خبر هذا الرجل . لقد كان اسمه بيرولت ، وقبل ان يخصص نفسه للارساليات التى تقوم بنشراتها فى الشرق الاقصى ، درس فى باريس ، وفى بولونيا ، وفى جامعات اخرى . كان رجلا متعلما عالما ، ولم يبق الا القليل من أسانيد حياته فى مرحلتها الاولى ، ولكن ذلك شىء غير مستغرب بالنسبة لرجل فى سنه وحرفته

« كان مغرما بالموسيقى والفنون ، ولديه قدرة خاصة على اتقان اللغات ، وكان من حيث البنية قويا . وفى سنواته الاولى هنا ، كان يعمل فى الزراعة بيديه مثل اى رجل آخر ، فيفلح حديقته الخاصة ، ويتعلم من الاهالى كما يتعلمون منه

« وقد اكتشف مناجم للذهب على طول الوادى ، بيد ان ذلك لم يأسر لبه ، لان اهتمامه العميق كان موجها الى النباتات والى الاعشاب المحلية . كان يستطيب ما فى الحياة الدنيا من الطيبات . وكان حريصا على ان يعلم من يهتدون بتبشيره أصول الطهو ، كما يعلمهم أصول الدين . وأريد بهذا الكلام ان اصوره لك شخصا مخلصا جادا مشغولا متعلما بسيطا متحمسا ، لم يكن ليستنكف ان يرتدى ثياب البناء ليساعد فى البناء الفعلى لهذه الحجرات نفسها ، بنفس الاقبال الذى يمارس به مهامه الدينية الوقور

« وحينما تم تشييد الدير كان بيرولت قد غدا رجلا مسنا . وكان اهل الوادى ، بل والرهبان البوذيون انفسهم قد نما حبه فى قلوبهم ، كما نمت طاعته عليهم . وبمرور السنوات صاروا يجلونه أيضا .

« وكان فى التاسعة والثمانين من عمره عندما حــدث تغير دقيق فى المؤسسة التى اقامها . ولم يكن ذلك جديرا بالدهشة فى الحقيقة . لانه لا يمكن ان ينتظر من رجل واحد ليس له معين ان يتمكن من اقتلاع جذور عادات وتقاليد كونتها القرون اقتلاعا تاما

«لم يكن له زملاء غربيون يشدون ازره عنــدما بدات قبضــته تسترخى ولعلها كانت غلطة ان يقيم مؤســسته فوق موضع كانت تقوم فيه ثقافات اقدم من مؤسسته وشديدة المباينة لها

« ومهما يكن من امر ، فان بيرولت لم يفطن الى الخطا الذى وقع فيه ، كان قد شاخ جدا ، وغمرته طمانينــــة الســن . وكان اتباعه مخلصون له جدا حتى وان نسوا تعاليمه . اما اهل الوادى فكانوا يجلونه اجلالا يحمله على أن يغفر لهم انتكاسهم الى عاداتهم السابقة . وفى سن الثامنة والتسعين بدأ بيرولت يدرس الـكتب البوذية التى خلفها وراءهم فى شانجرى لاسكانه السابقون

« وفى هذه الاثناء ، كما لا شك انك توقعت ، كان كثير من تلاميذه الاولين قد قضوا نحبهم ، ولما كان سد فراغهم قليلا فى عدده ، فقد تناقص عدد المقيمين تحت سلطانه ، فبعد ان كانوا ثمانين فى وقت من الاوقات هبط العدد الى عشرين ، ثم بعد ذلك الى اثنى عشر فقط ، ومعظمهم مسن جدا .

« وكانت حياة بيرولت فى هذا الوقت قد غدت هادئة جــدا ، فهى انتظار رزين للنهاية ، فلا شيء يستاديه الوفاء الا ذلك النــوم الابدى ، ولم يكن يشعر بخوف منه . اذ ان سكان الوادى كانوا بدافع عطفهم ورقتهم كانوا يمدونه بالثياب والطعام . وكانت مكتبته تمده بمجال العمل ، فقد ظل ذهنه على درجة خارقة من الصفاء ، حتى انه شرع يدرس بعض الاعمال السرية والتمرينات التى يسميها الهنود « اليوجا » ، وهى قائمة على اساس اساليب معينة فى التنفس بطرق مختلفة

« وفى سنة ١٧٨٩ هبطت الى الوادى انباء احتضــــار بيرولت اخيرا ، وكان يا عزيزى كونواى مستلقيا فى حجرته ، بحيث يستطيع ان يرى من النافذة ذلك البياض الساطع ، الذى كان كل ما تتيحه له قوة بصره الواهنة ، من قمة كاراكال ، بيد انه كان يستطيع ان يرى ايضا بعين عقله ، كان يستطيع أن يتصور ذلك الشكل الواضح الذى لا يبارى ، الذى وقعت عليه عينيه لاول مرة قبل نصف قرن من الزمان

« استقام ذهنه فى هدوء اشبه ببياض الثلج ، كان مستعدا ، بل كان راغبا فى الموت سعيدا به ، فجمع اصــحابه وخدمه من حوله ، وودهم جميعا ، ثم طلب ان يتركوه وحده برهة

« وفى مثل عزلته هذه كان يرجو ان يسلم روحه .. بيــد ان الامور لم تجر على هذا النحو ، فقد استمر رقاده اسابيع كثيرة بغير كلام وبغير حركة ، ثم بدا يتعافى !

« وكانت سنه فى ذلك الوقت مائة وثمانية اعوام ... »

وتوقف همس اللاما الاعظم برهة ، فتحرك كونواى حــركة يسيرة فى مقعده ، وقد تراءى له ان اللاما الاعظم كان يترجم له حلما خاصا موغلا فى القدم

طال ذلك الصمت الرهيب برهة طويلة ، الى أن قطعه من تلقــاء نفسه ، ليستأنف الحديث بصوته الهامس :

« وكسائر الناس الذى طال وقوفهم على عتبات الموت ، اتيحت لبيرولت رؤيا ذات مغزى ، كى يعود مزودا بها الى الدنيا . ولكنى فى هذا المقام سأقصر حديثى على اعماله وسلوكه ، فقد كانا فى الحقيقة جديرين بالاهتمام ، فبــدلا من أن يركن الى كــل النقاهة ، كما كان ينتظر منه ، انغمس فى رياضة نفسه رياضة صــارمة .

وبيــدو ان التزام نظام دقيق للتغــذية ، والتنفس العميق

بتمريناته ، قد اعطياه سر الحيـاة ، فالحقيقة الراسخة انه عندما مات آخر واحد من قدماء الرهبان فى سنة ١٧٩٤ ، كان بيرولت نفسه لا يزال على قيد الحياة !

« واصبح بيرولت فى نظر اهل الوادى بسرعة ، شخصية تحيط بها طوايا الاسرار ، وناسكا لديه قدرة عجيبة ، يعيش بمفـرده فوق تلك الصخرة الهائلة ، ولكن بقيت لديهم تقاليد حفظ الوداد له . وصار من المعتقد عندهم أن الصعود الى شانجرى‌لا وتقديم هدية بسيطة ، أو القيام ببعض العمل اليدوى الذى يحتاج اليـه المكان ، مما كان يجلب لهم لسعادة . وكان بيرولت يمنح جميع هؤلاء الحجاج بركته

« ومع بوادر القرن الجديد تضخمت الاسطورة ، فقيل ان بيرولت اصبح الها ، وانه يأتى بالمعجزات ، وانه فى ليال معينة يطير الى قمة كاراكال ليرفع الى السماء شمعة مضيئة . والواقع انه توجد هالة باستمرار فوق قمة الجبل فى الليالى التى يكون القمر فيها بدرا . ولكن لا حاجة الى ان أؤكد لك انه لا بيرولت ، ولا اى انسـان آخر قد استطاع يوما أن يصعد الى هناك

« وقد تحب ان تعلم كيف قضى وقته طيلة تلك السـنوات ، وسلوكه يمكن ان نلخص فى قولنا انه لما لم يمت فى السن العادية ، بدأ يشعر انه لا لزوم ولا مبرر لان يلتزم بأن يموت او لا يموت فى اى وقت معين فى المستقبل

« لقد اثبت لنفسه انه خارق للعادة ، فأصبح من الســهل ان يظن أن هذا الشـذوذ يمكن أن يستمر دائما ، كما انه من الجائز ان ينتهى فى اية لحظة ، ومادام الامر كذلك ، فقد بدأ يعيش نوعا من الحياة التى كان على الدوام يتمناها ولكنه كان يجدها غير ممكنة الا فى النادر . وكانت ذاكرته مدهشة ، حتى بدا كأنه أصبح قادرا على تعلم كل شىء بسهولة اعظم كثيرا مما كان يفعل فى سنوات دراسته

التى عرف فيها بقدرته على تعلم اى شىء . وسرعان ماوجد نفسه بطبيعة الحال محتاجا الى كتب ، ولكنه كان قد جاء معه منذ البداية بعدد قليل منها

« وبعد ذلك ، فى سنة ١٨٠٤ ، جاء غريب آخر من أوربا الى وادى القمر الازرق . وكان هذا الغريب الثانى شـاب من اهل النمسا اسمه هنشل ، سبق له أن حارب ضد نابليون فى ايطاليا . وكان شاب نبيل المولد ، رفيع الثقافة ، فى سلوكه سحر وظرف كبير ، وكانت الحروب قد اتت على امواله ، فتجول هائما عبر بلاد روسيا ، الى آسيا ، وله نية غامضة على استعادة ثرائه الضائع

« وقد يكون من الشائق ان تعلم كيف تمكن بالضبط من الوصول الى الهضبة ، ولكن لم تكن لديه شخصيا اية فكرة واضـحة عن ذلك . والحقيقة انه كان قريبا من الموت حين وصل الى هنا ، كما كان بيرولت نفسه يوم وصوله

« ومرة اخرى ظهرت واضحة صفة كرم الضيافة التى عرفت فى شانجرى‌لا ، وعوفى بسرعة ، وعلى الفور استحوذت مناجم الذهب على اهتمامه ، وكان مطمعه الاول أن يثرى منها ثم يعود الى أوربا فى اسرع وقت مستطاع . بيد انه لم يعد ، فقـد حدث له شىء غريب . وان كان الذى حدث قد تكرر وقوعه بعد ذلك كثيرا ، بحيث يجمل بنا ان نتفق من الان على انه ليس غاية فى الغرابة بعد كل حساب . .

« فهذا الوادى بما فيه من امن وسلام وحرية تامة من الهموم الدنيوية ، اغراه مرة بعد اخرى ان يؤجل رحيله ، وذات يوم ، وكان قد سمع الاسطورة المحلية ، تسلق الجبل الى شانجرى‌لا ، وحدثت اول مقابلة بينه وبين بيرولت

« وكانت هذه المقابلة تاريخية بأصدق معانى هذه الكلمة ، وسوف لا احاول ان أصف المشاركة التى نشبت بين الاثنين ، فقد



ابدى أحدهما منتهى الاعجاب والتقديس ، فى حين أشركه الآخر فى معارفه ونشواته وحلمه الفريب الذى اصبح الآن كل ما بقى له فى هذا العالم من الحقيقة الواقعة »

وسكت بيرولت برهة ، وعندئذ قال له كونواى بكل هدوء :

ــ استميحك ان اقاطعك ، ولكن هذه النقطة ليست واضحة فى ذهنى تمام الوضوح

فهمس اللاما الاعظم يجيبه فى رقة تامة :

ــ اعلم هذا . فهذه مسالة سوف يسعدنى أن افسرها لك بجلاء قبل ان ينتهى حديثنا . اما فى الوقت الحاضر فساخصص نفسى لامور ابسط من ذلك ، وهناك حقيقة سوف تثير اهتمامك ، هى ان هنشل هو الذى بدأ فى تكوين مجموعتنا فى الفن الصينى ، وكذلك مكتبتنا ومقتنياتنا الموسيقية

« قام هنشل برحلة بارزة القيمة الى بكين ، وعاد من هناك بأول شحنة فى سنة ١٨٠٩ ، ولم يترك الوادى بعد ذلك ، ولكن عبقريته هى التى انشأت النظام المعقد الذى بفضله ظل الدير منذ ذلك الحين قادرا على ان يحصل على اى شىء يحتاج اليه من العالم الخارجى »

فسأله كونواى مرة اخرى :

ــ اظنكم وجدتم من السهل عليكم جدا أن تدفعوا ثمن كل شىء بالذهب ؟

ــ اجل .. كان من حسن حظنا ان نمتلك مددا من هذا المعدن الذى يظفر بتقدير مرتفع جدا فى انحاء اخرى من العالم

ــ ان هذا التقدير العالى يبلغ من شدته انكم سعداء الحظ جدا اذ نجوتم من هجوم كالطوفان

فهز اللاما الاعظم راسه بمقدار ضئيل جدا دلالة على الموافقة :

ــ هذا يا عزيزى كونواى كان مصدر خوف هنشل الدائم ، ولهذا كان حريصا على انه ما من احد من الحمالين الذين يأتوننا بالكتب وكنوز الفن ينبغى له ان يقترب اكثر ممايجب . فكان يأمرهم بترك أحمالهم على مسيرة يوم خارج المنطقة ، ثم يقوم اهل وادينا أنفسهم باحضارها فيما بعد . ثم خطر له بعد قليل أن هناك وسيلة أسهل واضمن من ذلك ...

فظهر على وجه كونواى التلهف المكتوم وهو يقول :

ــ وما هى ؟ ..

فاجاب الشيخ بهدوئه المألوف :

ــ انت مدرك انه لا حاجة بنا أن نخاف الغزو على يد جيش . وهذا لن يمكن فى يوم من الايام بسبب طبيعة الاقليم وابعاده . فاقصى ما يمكن افتراضه هو وصول حفنة من الافاقين . وحتى لو كانوا مسلحين فالارجح انهم يصلون فى حالة اعياء تجردهم من كل خطر ، ولهذا تقرر منذ تلك اللحظة السماح للغرباء بالقدوم كلما شاءوا ، ولكن بشرط واحد هام

» وعلى مدى فترة من السنوات جعل هؤلاء الغرباء يقدمون الينا ، ما بين تجار صينيين ، وبدو من أهل التبت ، كما حضر مرسلان انجليزيان فى طريقهما الى بكين . وفى سنة ١٨٢٠ جاء تاجر يونانى وفى صحبة خدم مرضى يتضورون جوعا . وقد وجدناه ميتا على القمة العليا من الممر .

« وفى سنة ١٨٢٢ كان ثلاثة من الاسبان قد سمعوا صدى غامضا يتردد عن قصة الذهب ، فوصلوا الى هنا بعد تجوال طويل وفشل متكرر . وكذلك فى سنة ١٨٣٠ حضرت موجة اكبر ، قوامها

المانيان وروسى وانجليزى وسويدى مجتازين تياتشان المرهوب ، مدفوعين بباعث يزداد على ممر الايام شيوعا ، وهو باعث الكشف العلمى

« وفى الوقت الذى وصلوا فيه ، كان قد حدث تعديل ضئيل فى سلوك شانجرى لا حيال زائريه ، فلم يعد المتبع الترحيب بهم اذا وجدوا طريقهم الى الوادى فحسب ، بل صار من المعتاد استقبالهم اذا اصبحوا على مسافة معينة ، وهذه مسألة لها قيمتها ، لانها تدل على ان الدير لم يعد يبذل كرم ضيافته فى غير اكتراث ، بل اصبح محتاجا وراغبا فى وصول افواج جديدة

« وفى الاعوام التالية حدث فعلا أن حضر اكثر من فوج من افواج المكتشفين الذين بهرتهم النظرة الاولى على البعد الى قمة كاراكال . وقد توجه لاستقبالهم على مسافة من الممر رسل يحملون دعوة ودية من الدير ، وهى دعوة قلما ترفض

« وفى تلك الاثناء كان الدير قد بدأ يكتسب الكثير من خصائصه الحالية ، وينبغى ان الح فى بيان حقيقة ما اتصف به هنشل من كفاية عظيمة ومواهب . وان شانجرى لا الذى تراه اليوم ، مدين قدر ما هو مدين لمؤسسه ، فقد حقق الشىء الكثير قبل أن يموت »

فهتف كونواى وهو أشبه بالصدى منه بالمستفهم :

ــ قبل أن يموت ! ؟

ــ اجل ، فقد مات فجاة . قتل فى سنة ١٨٥٩ ، وقبل وفاته

مباشرة كان فنان هندى قد رسم له صورة . وفى وسعى أن اريك هذه الصورة الآن ، فهى موجودة فى هذه الغرفة

وباشارة يسيرة من يده دخل خادم . وراقب كونواى الرجل وهو يزيح ستارا صغيرا فى الطرف القصى من الحجرة ، ثم يترك مصباحا يهتز بين الظلال ، وبعد ذلك سمع همسا يدعوه أن يتحرك وهو ذلك الهمس الذى اصبح لديه موسيقى مالوفة

ونهض كونواى واقفا ، ثم عبر دائرة النور المهتزة ، وكانت الصورة صغيرة تكاد لا تزيد على حجم الشخوص الصغيرة ، مرسومة بالحبر الملون ، بيد أن الرسام اجتهد ان يعطى البشرة رقة مستعارة من اشفال الشمع . وكانت الملامح رائعة الجمال ، الا ان اعجب ما فى الامر كله ان كونواى فطن بعد النظرة الاولى التى اثارت اعجابه ، الى ان الوجه كان وجه شاب . وتلعثم وهو يبتعد قائلا :

ــ ولكنك قلت انها رسمت قبل وفاته مباشرة ؟

ــ اجل ، وهى تشبهه جدا

ــ اذن مات فى السنة التى ذكرتها . . .

ــ نعم . . .

ــ وجاء الى هنا كما قلت لى فى سنة ١٨٠٣ ، وهو بعد شاب ؟

ــ اجل . . .

فسكت كونواى لا يتكلم لحظة ، ثم استجمع مجهوده ليقول :

ــ وانه قتل ، كما قلت لى ؟

— اجل ، اطلق عليه انجليزى الرصاص . وكان ذلك بعد انقضاء اسابيع قليلة من وصول ذلك الانجليزى الى شانجرى لا . وكان واحدا من اولئك المكتشفين

— وماذا كان السبب ؟

— حدثت مشاحنة بسبب بعض الحمالين . وكان هنشل قد اخبره لتوه بالشرط الهام الذى يسود استقبال الزائرين . وكان هذا الابلاغ مهمة ثقيلة . ومنذ ذلك اليوم اخذت على عاتقى ، برغم ضعفى ، أن اقوم بابلاغه للزائرين بنفسى .

وسكت اللاما الاعظم برهة اخرى اطول من سابقتها ، ولكن كان فى صمته تلميح خفى الى سؤال ، فلما تكلم بعد ذلك ، قال :

— احسبك تتساءل ياعزيزى كونواى ، ماذا عسى أن يكون هذا الشرط الذى حدثتك به ؟

فاجابه كونواى ببطء ، وبصوت منخفض :

— اظن اننى استطعت أن افهمه

— احقا ؟ وهل تستطيع ان تفهم اى شىء آخر بعد قصتى هذه الطويلة الغريبة ؟

وكان كونواى طوال ذلك الحديث يصغى باهتمام ، اما الآن فقد طغى عليه طوفان من العجب ، وتجمعت فى ذهنه عقيدة كادت تختنق وهو يعبر عنها باللفظ ، اذ تمتم متلعثما يقول :

— يبدو هذا مستحيلا ، ومع هذا لا استطيع ان امنع نفسى من

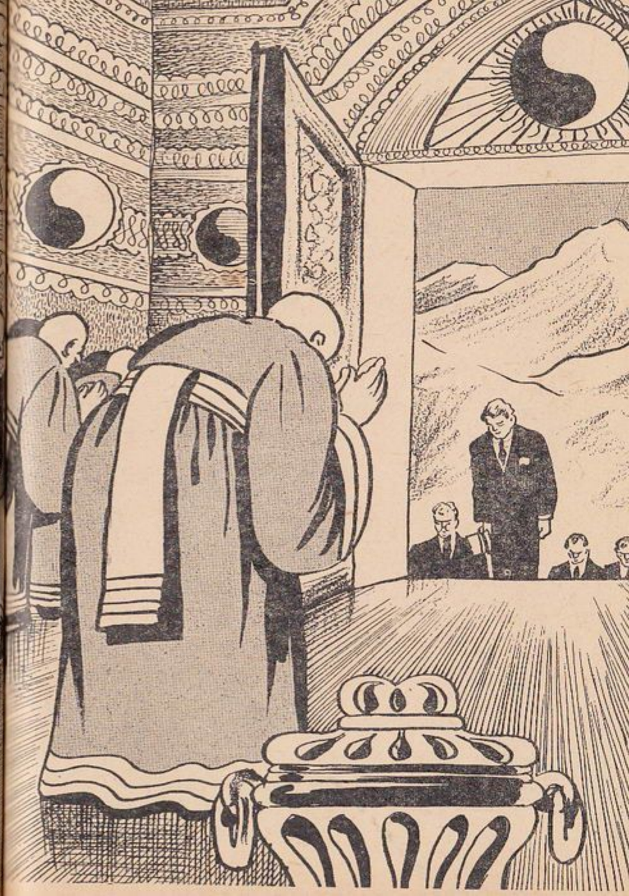
التفكير فيه .. انه شىء غريب .. خارق .. لا يعقل .. ومع ذلك لا اجده يتجاوز طاقة تصديقى ..

— وماهو ياولدى ؟

فأجابه كونواى وهو يرتعد بانفعال لايدرى له سببا ، ولم يحاول أن يخفيه ، قال :

— انك ما زلت على قيد الحياة ، أيها الأب بيرولت ! ..

***



ساد السكون بعدهذه الكلمات، لأن اللاما الاعظم أمر بتقديم المرطبات ، وبينما الخدم يحضرون أوانى الشاى ، شرع يتحدث عن الموسيقى ، ويعرب لكونواى عن الاعجاب الذى لقيه ذوقه فى هذا الباب ، وعن تمكنه من ارضاء نزوعه الموسيقى وهو فى شانجرىلا

واجابه كونواى بأدب قائلا انه دهش دهشة عظيمة عندما وجد الدير يمتلك هذه الملكية الكاملة من الموسيقيين الاوروبيين . وتولى اللاما الشكر على هذه التحية بين رشفات بطيئة من الشاى :

— يا عزيزى كونواى .. نحن سعداء الحظ لأن من بينناموسيقيا موهوبا كان فى الحقيقة من تلاميذ شوبان . وقد أسعدنا أن نضع بين يديه التصرف التام فى قاعتنا الموسيقية ، وينبغى أن تقابله

— كم اود ذلك

واستمر تبادل هذه التعليقات

الى ان رفعت اوانى الشاى ، وعنـدئذ تسنى لكونواى أن يقـول بهدوء تام :

ـ لنعد الى موضوعنا السابق ، هل فى نيتكم أن تبقونا هنا ؟ ان هذا فيما اعتقد هو الشرط الهام ؟

ـ لقد اصبت الحدس يا بنى

ـ ان ما يحيرنى هو لماذا وقع علينا ، نحن الاربعـة بالذات ، الاختيار ، دون بقية هذا العالم

فاجابه اللاما الاعظم قائلا :

ـ انها قصة معقدة ، ان احببت ان تسمعها اجملتها لك . يجب اولا أن تعلم ان هدفنا دائما كان هو المحافظة بقدر الامكان على عددنا، بامدادات متصلة . وقد كان ـ بصرف النظر عن اسباب أخرى ـ من المستحسن ان يكون معنا اناس من مختلف الاعمار ، وممثلون لمختلف العهود . ولسوء الحظ ان السفر والرحلات الكشفية فى بلاد التبت قد توقفا منذ الحرب الاوروبية الاخيرة ، ونشوب الثورة الروسية . فقد كان آخر من زارنا فعلا يابانى وصل الينا سـنة ١٩١٢ ، ولم يكن بصراحة قنية ثمينة جدا

« من هذا يا عزيزى كونواى ترى اننـا لا نضمن ولا يمـكن أن نضمن النجاح . فبعض زوارنا لا يحظون بأى فائدة على الاطلاق من اقامتهم هنا . وهنـاك غيرهم يعيشون فقط الى ما يمكن أن يسمى سنا متقدمة بشكل عادى ، ثم يموتون من علة تافهة

« ووجـدنا بالتجربة ان اهل التبت على العموم أقل حساسية بكثير من الاجناس الخارجية . بيد ان احسن اشخاص التجـارب لدينا هم اهل الشمال الاوروبى ، والاجناس اللاتينية الاوروبية . ولعل الامريكيين أن يكونوا قابلين للتأقلم أيضا .

« وقد كان الموقف كمـا بينت لك ، بحيث اننا بقينا نحوا من

عشرين سنة لا نستقبل قادمين جددا . ولما كانت قد حدثت بضعة وفيات خلال هـــذه الفترة ، فقد رأينـا مشـكلة تبرز امامنا بسبب ذلك

« ومنذ بضع سنوات خرج علينا واحد منا بفكرة جديدة تنقذنا. وكان شابا من اهالى وادينا جديرا بالثقة ، ونصيرا متحمسا لأهدافنا، اقترح ان يتركنا ، وان يشق طريقه فى بعض البلدان المحيطة بنا ، وان يجلب الينا زملاء جددا ، بوسيلة كانت مستحيلة تماما فى عصور سابقة

ـ تعنى انه بعث الى الخارج عمدا ، بقصد احضار أشخاص الى هنا عن طريق الجو ؟

ـ كان فتى موهوبا الى أقصى الحدود ، وكانت لنا فيه ثقةعظيمة، ولما كانت الفكرة فكرته ، فقد اطلقنا يده فى تنفيذها . وكنا جميعا لا نعلم عن الموضوع سوى ان المرحلة الاولى من خطته تتضمن فترة تدريب فى مدرسة امريكية للطيران

ـ ولكن كيف استطاع ان يقوم بباقى الخطة ؟ ان المصـادفة المحضة هى التى جعلت هذه الطائرة بالذات توجد فى باسكول . .

ـ هذا صحيح يا عزيزى كونواى ، فهناك أشياء كثيرة تحـدث بالمصادفة . ولكن شاءت المصادفة أيضا ان تكون هذه هى التى كان يرتقبها تالو . ولو انه لم يجدها لما سنحت فرصة أخرى الا بعـد سنة او سنتين ، بل ربما لم تسنح على الاطلاق طبعا . وأعترف اننى دهشت عندما أبلغ ديدباناتنا نبأ هبوط على الهضبة

فهز كونواى راسه وقال :

ـ ولكن ما الهدف من وراء هذا كله ؟

ـ يا ولدى ، ان طريقة سؤالك هذا تدخل على قلبى سرورا ليس له حد . ففى خلال خبرتى الطويلة ، لم يوجه الى هذا السؤال من

قبل بمثل هذه اللهجة الهادئة . لقد كان بيانى يقابل بمشاعرمختلفة الالوان ، بين الاستكار أو الأسى أو الغضب ، أو عدم التصديق ، أو الهستريا . ولكنه لم يقابل حتى هذه الليلة باهتمام مجرد . وهذا سلوك ارحب به قلبيا . ولئن كنت اليوم مهتما ، فغدا سوف تشعر بمشاركة قلبية ، وربا طالبناك بمرور الوقت أن تنضم الينا

ـ هذا اكثر مما استطيع ان أعد به

ـ شكك نفسه يسرنى ، فالشك هو أساس الايمان . ولكن لندع المجادلة . انك مهتم ، وهذا يعتبر كثيرا منك . وكل ما أساله فضلا عن ذلك أن تبقى ما قلته لك مجهولا فى الوقت الحاضر من زملائك الثلاثة .

وظل كونواى صامتا ، فاستطرد اللاما الاعظم يقول :

ـ سيحين الوقت الذى يعلمون فيه كما علمت انت . بيد ان هذه اللحظة يجب من اجل مصلحتهم الا تتعجلها . وانا واثق جدا من حكمتك فى هذا الصدد ، حتى اننى لست بحاجة ان اطلب منك وعدا بذلك ، لاننى اعلم انك ستتصرف حيال هذه المسألة التصرف الذى يعتقد كلانا انه التصرف الصائب ..

« والآن دعنى ابدا ان ارسم لك صورة تروق لك كثيرا ، فانت ما زلت رجلا صغير السن بمقاييس العالم ، وحياتك كما يقول الناس ما زالت امامك . واذا سارت الامور فى مجراها الطبيعى ، لك ان تتوقع عشرين او ثلاثين عاما اخرى من النشاط

« وليس هذا بأى حال من الاحوال بالتقدير الذى يقضى على السرور ، ولا اتوقع منك فى الوقت الحاضر ان تنظر اليه كما انظر انا على انه مرحلة تافهة

« ان الربع قرن الاول من حياتك قد عشته ولا شك وانت تحت تأثير كونك أصغر من ان تواجه الامور . وفى الوقت نفسه سيكون

ربع القرن الاخير داخلا فى ظل سحابة اثقل هى كونك اسن من ان تنهض بالامور ، وفيما بين هاتين السحابتين ما اقل ما تنيره اشعة الشمس من فسحة عمر الانسان !

« ولكنك ربما كنت مندوبا للتمتع بحظ اوفر، لان ايامك المشرقة بمقاييس شانجرى لا لم تكد تبدأ . وسيحدث لك انك ربما ظللت عشرات السنين لا تشعر انك اكبر سنا مما انت الآن . وقد تحتفظ ، كما احتفظ هنشل بشباب طويل رائع . ولكن سيأتى زمن تشيخ فيه كما شاخ الآخرون، الا ان ذلكسيحدث ببطء جدا . ففى سن الثمانين قد يتسنى لك أن ترقى صخور ممرنا فى خطوة الشبان . ولكنك لا ينبغى أن تتوقع مثل ذلك النشاط وانت فى ضعف تلك السن « فى سن المئة والستين » . فنحن لسنا صناع معجزات ولم نصل الى قهر الموت ، بل ولا قهر فساد الجسم وانحلاله .

« ان كل ما وصلنا اليه أننا نستطيع فى بعض الاحيان أن نجعل وقع الحياة وتوقيتها يبدو ابطأ خطوا فى تلك المدة القصيرة التى نسميها مدة العمر .

« ونحن نلجأ فى ذلك الى وسائل تعتبر هنا بسيطة ، ولكنها فى اى موضع آخر تعتبر من المستحيلات . غير انى احذرك أن تقع فى خطأ جسيم فاياك ان تظن اننا مخلدون ، ان النهاية المحتومة تنتظرنا جميعا مهما طال الاجل .

« ومع هذا فان المستقبل الذى ابسطه امامك لا يبرح رائعا مثل السحر . فالسنوات سوف تأتى وتنقضى ، وسيكون لديك متسع من الوقت لكل شيء

« ان الوقت هبة نادرة محببة اضاعتها اممكم الغربية فى طوفان العجلة والسرعة ، ذلك الطوفان الذى تتسم به الحياة العصرية هناك»

وتوقف الصوت الهامس الساحر ، فساد صمت لم يتحرك

كونواى ليملأه بصوته ، وآثر ان يدع الفرصة للاما الاعظم كى يوضح له هدفه بمزيد من البيان

ولم يطل انتظار كونواى لذلك البيان ، فقد عاجله اللاما الاعظم فقال :

ــ صدقنى أن الالم قد يكون شديدا فى بداية الامر ، ولكن بعد عقد من الزمان ، سوف لا يطوف بك حتى ولا شبح ذلك الالم . هذا وان كنت فى الواقع ــ ان صح ما اقراه فى ذهنك ــ لاتشعر بشىء من هذه الاحزان

فأخذ كونواى بصدق فراسته ، واجاب :

ــ الامر كذلك عندى ، فانا غير متزوج ، وليس لى من الاصدقاء الحميمين الا قلة يسيرة ، ولا مطامع لى

ــ لا مطامع لك ؟ وكيف افلحت فى الافلات من شر هذا الداء الواسع الانتشار فى دنياكم ؟

ولاول مرة شعر كونواى انه يشترك فى الحديث اشتراكا فعليا ولا يكتفى بالاصغاء ، فقال :

ــ تراءى لى دائما ان النجاح الباهر فى مهنتى ليس له طعم مستساغ ، هذا الى انه يتطلب مجهودا اعظم مما اشعراننى مستعد لبذله ، وقد كنت فى السلك القنصلى ، وكانت وظيفتى متواضعة بيد انها كانت توافقنى كل الموافقة

ــ وروحك : الم تكن فى ذلك العمل ؟

ــ لا روحى ولا قلبى ولا نصف طاقتى ... فانا بطبيعة تكوينى كسول !

فازدادت أخاديد الغضون فى وجه اللاما الاعظم عمقا والتواء ، الى ان تبين كونواى أن اللاما الاعظم كان على الارجح يبتسم ، ثم استأنف الصمت الهامس الكلام :

ــ ان الكسل فى اداء بعض الاعمال قد يكون فضيلة جليلة ، وعلى كل حال سوف تجدنا فى هذه الناحية غير مدققين . واعتقد أن تشانج شرح لك مذهبنا فى التسامح والاعتدال . ومن الاشياء التى نتحرى الاعتدال فيها دائما ، نشاطنا

فابتسم كونواى وقال :

ــ انى اجد فى هذا المكان سحرا معينا ، وهدوءا يطيب لى ، ولا شك انى كما قلت سأتعود هذه الحياة

ــ وهل هذا كل شىء يابنى ؟ اليس فى الصورة التى اجملتها لك شىء يغريك بمشاعر اقوى من هذه ؟

فصمت كونواى برهة ، ثم أجاب قائلا :

ــ لقد تأثرت بقصة الماضى التى سردتها على تأثيرا عميقا . ولكنى بصراحة اجد ان صورة المستقبل التى رسمتها لا تعنينى الا بصفة عامة ، فانا لا أستطيع ان أفكر فى الامور على ذلك المدى البعيد

« اننى طبعا سأشعر بأسف اذا كتب لى أن اغادر شانجرى لا غدا او بعد غد ، او ربما ايضا فى السنة القادمة ، ولكن نوع شعورى اذا عشت هنا الى سن المئة موضوع آخر

« ربما كان فى مقدورى ان أواجه هذا الاحتمال ، كما اواجه أى مستقبل آخر ، ولكن يجب كى أشعر بالحرص على هذا النوع من المستقبل أن يكون لذلك المستقبل هدف

« وطالما ساورتنى الشكوك شخصيا فى أن للحياة نفسها أى هدف ، طالت هذه هذه الحياة او قصرت ، فاذا كان ذلك صحيحا ، فطول العمر اشد افتقارا الى الهدف ، فهل هناك حقا مبرر لان نحسد من بلغوا المئة ، ونتمنى مصيرهم ! »

فأجابه الصوت الهامس على ذلك بقوله :

ــ يا صديقى هناك مبرر ، ومبرر واضح جدا فى الواقع . اننا لا نقوم بتجربة بلهاء ازجاء للفراغ ، بل ان لنا حلما نريد تحقيقه ، وهدفا نرمى اليه

« هذا الهدف قد تمثل فى رؤيا الشيخ بيرولت وهو راقد يحتضر فى حجرته فى سنة ١٧٨٩

« فى ذلك الحين راح يستعرض حياته الطويلة كما قلت لك ، فتراءى له ان أجمل ما فى الحياة من اشياء سريع الفناء ، وان الحرب والضراوة قد يقضيان على كل ما هو جميل محبوب الى ان يتلاشى كل ذلك تماما من الارض

« وتذكر عندئذ مناظر رآها بعينيه ، وتولى ذهنه تصور امور اخرى فرأى الامم تتقوى لا فى الحكمة بل فى ارادة التدمير ، ورأى قوتهم الآلية تنمو وتتكاثر ، فتصور ان هذه الامم عندما يتم لها تغطية الارض والبحر بالخراب ، سوف تتجه الى الجو والفضاء .. فهل تستطيع أن تقول ان هذه الرؤيا لم تكن صادقة ؟ »

ـ بل صادقة حقا

ـ ولكن هذا لم يكن كل ما تراءى له . اذ راى ايضا بعين الغيب زمنا يشتد فيه هياج البشر فى طول الدنيا وعرضها ، حتى ان كل ثمين يمسى فى خطر . وكل كتاب او صورة او كنز يحكم عليه بالضياع والاهدار

« صدقنى أن هذه الرؤيا التى راها بيرولت الشيخ سوف تتحقق .. وهذا يابنى هو مبرر وجودى هنا ، ووجودك انت هنا ، وهو ايضا الدافع لنا أن نتوسل كى تطول اعمارنا الى ما بعد تلك النقمة التى تتجمع حولنا من كل جانب »

ـ أن نعيش بعدها ؟

ـ هذا محتمل ، فسوف يحدث ذلك كله قبل ان تبلغ سنى

ـ وهل تعتقد أن شانجرى لا سوف تنجو ؟

ـ ربما ، لا ينبغى أن نتوقع الرحمة ، ولكن لنا ان نامل فى اغفالنا . وهنا سنمكث بين كتبنا وموسيقانا وافكارنا حفظة على كنوز عصر انقضى أجله . فلدينا تراث نعزه ونعتز به ، فلنتمتع ما استطعنا الى أن يجىء ذلك الاجل

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك يا بنى ، حينما يكون الاقوياء قد التهم كل واحد منهم الآخر ، ستتحقق فى النهاية النبوءة التى تقول : « طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض »

وكانت قد شابت همس اللاما الاعظم شبهة من حرارة الحماسة فالقى كونواى سلاحه امام جمالها ، وشعر مرة اخرى بانطباق الظلام حوله فى سطوة ، كأن العالم الخارجى يتجمع فعلا للعاصفة

وعندئذ راى لاما شانجرى لا الاعظم يتحرك فى مكانه ، ويقوم من مقعده ، وينتصب واقفا وهو اشبه بشبح ، فاقدم كونواى بدافع الادب على مساعدته . بيد انه كبح نفسه ، لأن باعثا اعمق من ذلك استولى عليه فجأة . فاذا به يفعل ما لم يفعله ابدا من قبل مع اى رجل ، اذ ركع وهو لا يكاد يدرى لماذا ركع امامه

ولم يع تماما كيف استأذن فى الانصراف اخيرا ، اذ كان فى حلم لم يفق منه الا بعد برهة طويلة ، انه يتذكر فقط ان هواء الليل كان مثلوجا بعد حرارة تلك الغرفة العليا ، وأن وجود تشانج كان محفوفا بالصمت المطمئن ، وهما يجتازان معا الأفنية التى تضيئها نجوم السماء

ولم تتجل شانجرى لا لعينيه من قبل فى ابهى من هذا الجمال. وسكت تشانج فلم يتكلم ، وكذلك سكت هو ، فقد كان الوقت متأخرا جدا ، واسعده أن يجد الآخرين قد أووا الى مخادعهم

***

فى صباح اليوم التالى كان كونواى لا يزال فى عجب من امره ، هل كل ما يتذكره حدث حقيقة فى يقظة ام كان رؤيا منام ؟

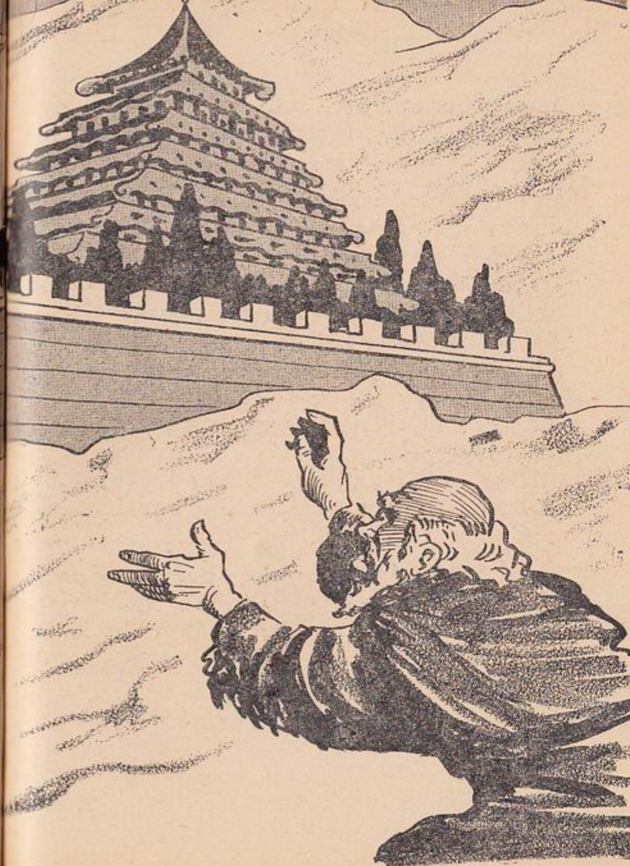
وسرعان ما تذكر الواقع لان طوفانا من الاسئلة استقبله حين ظهر على مائدة الافطار ، وبدا الامريكى بالسؤال :

ـ لا ريب انكما تحدثتما ليلة امس حديثا طويلا ، وكان فى نيتنا ان نسهر فى انتظارك ، لولا ان تعبنا . اى طراز من الناس ينتمى اليه هذا اللاما الاعظم ؟

اما مالينسون فقال فى لهفة :

ـ الم يقل شيئا عن الحمالين ؟
فأجابه كونواى قائلا :

ـ اخشى ان اكون مقدما فى الغالب على تخييب آمالكم جميعا ، فهو لم يذكر لى الحمالين على الاطلاق ، اما من جهة منظره ، فكل ما استطيع ان اقوله انه رجل مسن جدا ، يتكلم لغة انجليزية



ممتازة ، وهو حاد لذكاء

فقاطعه مالينسون قائلا :

ـ ان الامر الرئيسى بالنسبة لنا هو : هل هذا اللاما اهل للثقة أم ليس اهلا لها

ـ انه لم يوقع فى روعى انه شخص ملتو

ـ ولماذا بحق السماء لم تخاطبه فى امر الحمالين ؟

ـ لم يخطر الامر ببالى !

فحملق مالينسون غير مصدق وقال :

ـ لا استطيع ان افهمك يا كونواى ، فقد كنت رائعا جدا فى ازمة باسكول حتى اننى لا اكاد اصدق انك الشخص نفسه ، ويبدو انك قد تحطمت ايما تحطيم

فأجابه كونواى على الفور فى ايجاز :

ـ آسف . . .

ثم توجه الى الفناء ليتحاشى اى احتمال لمواجهة مزيد من الاسئلة المحرجة ، اذ شرع يتبين ما سيلزم له من قدر هائل من هدوء الطبع كى يساعده فى الحياة المزدوجة التى وجد نفسه مكرها عليها

انه يعيش مع رفاقه الثلاثة فى عالم يدور حول محور واحد . وذلك المحور هو وصول الحمالين والعودة الى بلاد الهند . اما فى سائر الاوقات التى يخلو فيها الى نفسه ، فقد كان يطلق العنان لاحلامه ، فاذا الزمن ينفسح ويمتد ، واذا المسافات تتشابك ، واذا اسم القمر الازرق يتخذ معنى رمزيا ، حتى كأن المستقبل اصبح على نحو ما ، لا يمكن ان يحدث الا فى القمر الازرق وحده

وبطبيعة الحال صار تشانج الآن يكلمه دون اى تحفظ ، وقد تبادلا احاديث كثيرة حول نظام الدير وروتين حياته ، فعرف كونواى انه فى خلال سنواته الخمس الاولى سوف يعيش حياة عادية ، غير مقيد بأى قاعدة خاصة . وقد اوضح له تشانج ان هذا هو المتبع دائما مع المستجدين ، وعلل ذلك بقوله :

ـ كى يتاح للبدن ان يكيف نفسه ويعتاد الحياة على ذلك الارتفاع الكبير عن سطح البحر ، وايضا لكى تعطى له الفرص فيتخلص من حسراته الذهنية والعاطفية

فعلق كونواى على ذلك وهو يبتسم :

ـ اخالكم اذن متاكدين انه ما من عاطفة انسانية يمكن ان يتجاوز عمرها خمس سنوات

فأجابه الصينى قائلا :

ـ بل من الممكن بغير شك ان تعمر بعض العواطف اكثر من ذلك ، ولكنها ستكون عندئذ مجرد ذكرى فواحة الاريج

واستطرد تشانج بعد ذلك يبين له تفاصيل المشروع ، فبعد السنوات الخمس الاولى سوف تبدأ عملية تأخير السن ، فان كتب لها النجاح ، فقد يتاح لكونواى أن يعيش نصف قرن أونحوذلك ومظهره الخارجى كانه فى سن الاربعين . وليس هذا بالاوان المزعوم لبقاء الحياة ثابتة عند ذلك الامد الطويل . .

فسأله كونواى :

ـ وماذا عنك انت ؟ كيف كان تاثير هذه الطريقة فيك ؟

ـ آه يا سيدى العزيز ، لقد اسعدنى الحظ ان اصل الى هنا فى سن مبكرة جدا . اذ كنت فى الثانية والعشرين من عمرى ، وكانت

خدمتى الجندية ، اذ كنت موكلا بقيادة الفرق التى تعمل ضد القبائل من قطاع الطرق فى سنة ١٨٥٥ ، ثم ضللت طريقى بين الجبال ، ولم يكتب الا لسبعة فقط من رجالى من بين اكثر من مائة ان يعيشوا اما الباقون فقد اهلكهم سوء الجو ، ولما نجوت اخيرا وجىء بى الى شانجرى لا كنت مريضا جدا ، فلولا حداثة سنى ومتانة بنيتى لهلكت .

فقال كونواى بصوت كانه الصدى :

ـ كنت فى الثانية والعشرين ، اذن انت الآن فى السابعة والتسعين ؟

ـ اجل ، وقريبا جدا سأتلقى التدشين الكامل

ـ وماذا يحدث بعد ذلك ؟ كم من الزمن تتوقع ان تمكث على قيد الحياة ؟

فأجابه تشانج بكل هدوء قائلا :

ـ ربما قرنا آخر او اكثر

فهز كونواى راسه وقال :

ـ لست ادرى هل ينبغى ان ازجى اليك التهنئة ام لا ، فانت فيما يبدو قدظفرت بخيرين دنيويين : ظفرت بشباب طويل ، ومازالت امامك شيخوخة فى مثل ذلك الطول . ومتى بدات تظهر عليك علائم السن ؟

ـ عندما تجاوزت السبعين ، وهذا هو ما يحدث غالبا ، وان كنت لا ازال ابدو اصغر من سنى

ـ بلا شك ، ولنفرض انك تركت الوادى الآن ، ماذا يحدث لك ؟

ـ انه الموت ، لو اننى بقيت بعيدا عن هنا اكثر من بضعة ايام

ـ اذن فالجو عنصر اساسى ؟

ـ هناك واد واحد للقمر الازرق ، اما من يتوهمون امكان العثور على نظير له فهم يسألون من الطبيعة اكثر مما ينبغى

ـ وماذا كان يمكن ان يحدث لك لو انك غادرت الوادى منذ ثلاثين سنة مثلا ، اثناء شبابك المتطاول ؟

فأجابه تشانج فى استفاضة قائلا :

ـ ربما كنت حريا ان اموت لو فعلت ذلك حينئذ ايضا . وعلى كل حال كانت ستظهر على جسمى بسرعة فائقة علامات عمرى الحقيقى . وقد عرض لنا منذ سنوات مثل بارز لذلك ، وان كانت تلك الامثلة قد تكررت من قبل

« ترك واحد منا الوادى ليبحث عن جماعة من الرحالة كنا قد سمعنا انهم يقتربون من منطقتنا . وكان هذا الرجل روسيا ، وكان قد وصل الى هنا وهو فى مقتبل العمر ، واندمج فى اسلوب حياتنا كل الاندماج ، حتى انه حين قارب الثمانين لم يكن يبدو انه يزيد على نصف ذلك العمر

« وكان المفروض الا يغيب مدة تزيد على اسبوع ، ولكن لسوء الحظ وقع فى اسر القبائل الرحل ، وحملوه الى مسافة بعيدة ، وخطر لنا ان حادثا وقع له ، واعتبرناه مفقودا

« وبعد ثلاثة اشهر اذا به يعود الينا بعد ان فر من الاسر ، ولكنه كان رجلا آخر تماما ، فكل عام من اعوام عمره كان مرسوما على وجهه وحركاته وسلوكه . ومات فعلا بعد مدة قصيرة كما يموت كل مسن »

وصمت كونواى برهة طويلة ، واخيرا قال :

ـ قصة محزنة جدا يا تشانج ، انها تمثل للمرء ان الزمن مثل الغول ، يتربص على باب الوادى من الخارج كى ينقض على هؤلاء

الذين استطاعوا ان يراوغوه اطول مما ينبغى

وفى مدى اسبوع او نحو ذلك ، بعد مقابلة كونواى للاما الاعظم ، حظى بمقابلة عدد آخر من زملائه فى المستقبل . ولم يكن تشانج متلهفا ولا متلكئا بخصوص هذا التعريف

وكان اول من التقى بهم كونواى رجل المانى يدعى مايستر ، وهذا الالمانى كان قد دخل الدير فى خلال العقد التاسع من القرن الماضى ، وكان هو البقية الباقية من جماعة المستكشفين اهلكهم البرد فى الجبل ، وهو يتكلم الانجليزية باتقان ، وان كان بشىء من اللكنة

وبعد يوم او يومين حدث تعريف آخر . وقد طابت لكونواى تلك المحادثة الاولى مع الرجل الذى اشاد به اللاما الاعظم ، واسمه الفونس برياك ، وهو رجل فرنسى صغير القامة ، بيد انه متين البنية ، لا يبدو مسنا بشكل بارز ، مع انه قرر انه كان فى عداد تلاميذ شوبان

وقد حدث برياك كونواى بالشىء الكثير عن ذلك الموسيقار العظيم ، وعزف له مقطوعاته المعروفة بشىء كثير من البراعة ، ويبدو ان ذلك الفرنسى كان يعرف جملة مقطوعات لشوبان لم يكتب لها النشر مطلقا ، ولما كان الفرنسى قد سجلها ، فقد اقبل كونواى على استظهارها

ولكنه كان لا يزال يقضى معظم وقته مطالعا فى المكتبة ، وفى كثير من الاحيان كان يصغى لعزف لوتسين على النآى الكبير ، ذلك العزف الذى كان بالغ الروعة فى رقته . ولم تكن تحادثه الا نادرا جدا : مع انها كانت تعرف الآن ان كونواى قادر على ان يخاطبها بلغتها . اما مع مالينسون الذى اصبح يميل لزيارة قاعة الموسيقى فى بعض الاحيان ، فكانت خرساء تقريبا

وذات مرة سأل كونواى تشانج ان يحدثه بقصتها ، فعرف منه انها تنحدر من سلالة ملكية فى منشوريا

ــ كانت هذه الفتاة مخطوبة لامير هناك ، وكانت مسافرة الى جاث جار لتقابله ، عندما ضل حملة هودجها الطريق بين الجبال ، وكانت الجماعة كلها حرية بدون شك أن تهلك لولا انها التقت كالعادة برسلنا الذين نبعثهم لانقاذ الضالين فى هذا الاقليم

وعندئذ سأله كونواى السؤال الحاسم :

ــ ومتى وقع لها ذلك ؟

فأجابه تشانج ، وفى عينيه شبح ابتسامة :

ــ فى سنة ١٨٨٤ ، وكانت يومئذ فى الثامنة عشرة من عمرها !

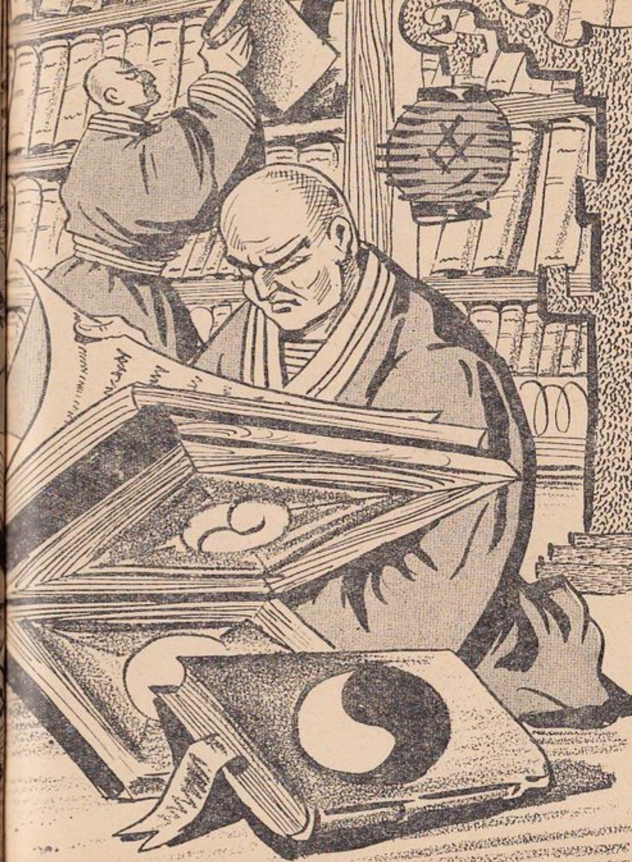
***

بعد مضى شهر على وصول كونواى الى شانجرى لا ، تلقى الدعوة الثانية لزيارة اللاما الاعظم، وقد علق تشانج على ذلك بقوله :

ـ انه لامر شاذ وعجيب ، اذ لم يحدث مطلقا من قبل ، منذ ثبت نظام الدير على اساس مستقر ، ان رغب اللاما الاعظم فى مقابلة ثانية قبل نهاية السنوات الخمس الاولى ، لانه يلاقى عناء كبيرا فى التحدث الى زائر عادى فى مستواه

ولكن بالنسبة لكونواى ، لم تكن هذه الدعوة بالطبع شيئا اشد خرقا للعادة من اى شىء آخر لقيه فى هذه الرحلة

وبعد ان زار اللاما الاعظم مرة ثالثة ورابعة ، بدأ يشعر ان هذه الزيارات ليس فيها شىء خارق مطلقا . اذ ان عقليهما كانا يتقاربان بدرجة كبيرة من السهولة ، حتى ان كونواى احس بجميع توتراته الخفية تسترخى، وباح للاما الاعظم بكل افكاره الخاصة وتجاربه



وبمرور الايام والاسابيع بدا يشعر بالارتياح يوحد بين عقله وبدنه ، لقد اخذ يقع تحت التأثير ، كما وقع بيرولت وهنشل والآخرون . ان القمر الازرق قد استولى عليه ولم يعد له من ذلك مفر ، فعندما كان يسمع انغام الناى الفضية تأتى اليه عبر بحيرة اللوتس ، كان يشعر انها تنسخ الصورة الكاملة للنظر والصوت . وكلما كان يصغى كلما كان يزداد تحققا من نمو تعلقه بالعازفة الصغيرة لوتسين

بيد انه لم يطلب منها شيئا ، حتى ولا ردا او استجابة ، لانها كانت تلوح له رمزا لكل ما هو دقيق رقيق مرهف

وبعد ذلك ، فى فترات ، كان يخطو الى ذلك العالم الآخر ، حيث يصطدم بفراغ صبر مالينسون ، ومرح برنارد ، ونوايا الآنسة برنكلاو القوية

كان يشعر انه حرى ان يسر ايما سرور حين يعرفون جميعا قدر ما يعرفه هو . وكان رايه كراى تشانج ، فهو لا يتصور صعوبة من جهة الامريكى او المبشرة ، بل انه سمع برنارد مرة يقول :

ــ اتعلم يا كونواى اننى لست متاكدا ان هـذا المكان لا يصلح للاستقرار والاقامة ؟ كنت اظن فى اول الامر اننى سأفتقد الصحف والمسارح ، ولكننى اظن الآن اننا نستطيع ان نتعود اى شيء

فوافقه كونواى على ذلك قائلا :

ــ اظننا نستطيع ذلك فعلا

فابتسم الامريكى بكل اشراق وقال :

ــ وهذا يؤدى بنا الى شيء لا مانع عندى ان اخبركم به يا قوم ، مادمنا بصدد الموضوع ، لقد انتويت ان اتخلف عن هؤلاء الحمالين ، واظنهم يأتون الى هنا بانتظام ، فلا بأس ان انتظر الرحلة التالية ، او التى بعد التالية !

ــ اتعنى انك سوف لا تأتى معنا ؟

ــ هذا ما اعنيه ، فقد قررت ان ابقى هنا فترة من الزمن . ان العودة قد تكون شيئا بديعا بالنسبة لكم .. ستجدون الجوقة الموسيقية تعزف فى الوطن فرحا بقدومكم ، اما انا فالترحيب الوحيد الذى سأتلقاه ، سيكون من جانب ثلة من الشرطة

فقال له مالينسون بجفاء :

ــ اظن هذا شأنك الخاص ، فما من احد يستطيع ان يمنعك من البقاء هنا طول حياتك ، ان كنت راغبا فى ذلك

ومع هذا نظر حوله نظرة استفتاء وقال :

ــ ليس هذا على كل حال ما يختاره كل انسان ، فالآراء تختلف ، ما قولك انت يا كونواى ؟

فقال كونواى بكل هدوء :

ــ انا اوافقك على ان الآراء تختلف فعلا ..

فالتفت مالينسون الى الآنسة برنكلاو ، التى وضعت كتابها فجأة وقالت بكل ثبات :

ــ الحقيقة الواقعة اننى اعتزم البقاء ايضا ! ..

فصاح الجميع فى نفس واحد :

ــ ماذا تقولين ؟ ..

فاستطردت وهى تبتسم ابتسامة مشرقة :

ــ لقد فكرت طول الوقت فى الملابسات التى أتت بنا جميعا الى هنا . وهناك نتيجة واحدة استطيع ان استخلصها ، وهى ان قوة خفية تعمل وراء الستار ، الا ترى ذلك يا مستر كونواى ؟

وكان كونواى حريا أن يجد الرد عسيرا ، بيد ان الآنسة برنكلاو وفرت عليه الحرج باستئناف الكلام :

— ومن انا حتى اعارض ما تمليه العناية ؟ لقد ارسلتنى الى هنا لغرض خفى ، وهنا سأبقى ..

فسألها مالينسون :

— اتعنين انك تأملين انشاء « ارسالية » هنا للتبشير ؟

— لست آمل ذلك فحسب ، بل هذا ما انتويه بكل عزم ، فانا أعرف تماما كيف اتعامل مع هؤلاء الناس ، فلا تخش شيئا ، فسأعرف كيف اشق لى طريقا

فضحك برنارد ضحكة مكتومة وقال :

— ان هذه المؤسسة تمون جميع الاذواق

فرد عليه مالينسون بقسوة قائلا :

— ربما .. اذا كنت ممن يحبون السجن !

وكان قرار برنارد والآنسة برنكلاو ان يبقيا ، يبدو من الخير فى نظر كونواى ، وان كان هذا القرار قد جعله هو ومالينسون يبدوان فى المعسكر المقابل ، فى الوقت الحاضر على الاقل . وكان الموقف غريبا ، ولم تكن لديه خطة محددة لحله

ولحسن الحظ لم يكن هناك من حاجة ظاهرة الى حله على الاطلاق ، فالى ان ينقضى الشهران ، لا يمكن ان يحدث شيء ذو بال ، اما بعد ذلك فلا مناص من حدوث ازمة

وذات صباح اقترب من تشانج وقال له :

— انت تعلم اننى قلق بخصوص الشاب مالينسون ، واخشى انه سيتأثر جدا عندما يكتشف الحقيقة ويثور

فأومأ تشانج برأسه وقال :

— اجل ، سوف لا يكون من السهل ان تقنعه بحسن طالعه ، بيد ان المشكلة وقتية على كل حال ، ففى مدى عشرين سنة منذ الآن سيكون صديقنا قد طاب نفسا

فقال كونواى :

— انى اتساءل : كيف سنفضى اليه بالحقيقة ، فهو يحصى الايام الباقية على وصول الحمالين ، واذا لم يأتوا ..

— ولكنهم سوف يأتون ..

— حقا ؟ لقد خيل الى ان كلامك عنهم انما هو اسطورة لطيفة لتخدير اعصابنا والتهوين علينا فى واقع الامر

— كلا ، اؤكد ان ما ذكرته عن الحمالين كان صحيحا تقريبا فى كل شيء ، وعلى كل حال فنحن نتوقع قدومهم فى نحو الزمن الذى حددته لك

— اذن ستجد صعوبة فى منع مالينسون من مرافقتهم

— ونحن لن نحاول ابدا ان نمنعه ، ولكنه هو الذى سيكتشف بالتجربة الشخصية ان الحمالين غير مستعدين ان يأخذوا معهم احدا عند عودتهم ..

— فهمت .. وماذا نتوقع ان يحدث بعد ذلك ؟

— بعد ذلك يا سيدى العزيز ستمر فترة من خيبة الامل ، ولما كان شابا ومتفائلا فانه سيبدأ يعلق الآمال على القافلة التالية من الحمالين ، التى ستصل بعد تسعة اشهر او عشرة ، عسى ان تكون اسهل انقيادا لرغبته ، وهو امل من الحكمة الا تحول بينه وبين التعلق به فى مبدأ الامر

فقال كونواى بحدة :

— لست واثقا انه سيفعل هذا الذى تقول ، بل اغلب الظن انه سيحاول الفرار بوسائله الخاصة

فقال تشانج باثارة شديدة :

— الفرار ؟ اهذه حقا هى الكلمة التى ينبغى ان تستعمل ؟ ان المر

على كل حال مفتوح لاى انسان وفى اى وقت ، وليس عندنا سجانون الا أولئك الذين امدتنا بهم الطبيعة نفسها

فابتسم كونواى ، وقال :

ــ حسنا ، لا بد من الاعتراف بأنها قد احسنت القيام بهذه المهمة ، وماذا تقول عن الجماعات الكشفية المختلفة التى وصلت الى هنا ؟ هل كان الممر مفتوحا ايضا على الدوام عندما ارادوا الارتحال من هنا ؟

وحل دور تشانج ان يبتسم فى هذه المرة ، ثم قال :

ــ ان ظروفا خاصة يا سيدى العزيز قد اقتضت فى بعض الاحيان اتخاذ اجراءات خاصة

ــ عال ! . . اذن انتم تسمحون فقط للناس بفرصة الفرار عندما تقدرون انهم من الحماقة بحيث ينتهزونها ؟ ومع هذا اظن ان بعضهم يقدمون على ذلك

ــ لقد حدث ذلك نادرا ، ولكن القاعدة العامة انهم يرحبون بالعودة بعد تجربة ليلة واحدة فى العراء على الهضبة

ــ بغير وقاء ولا ملابس مناسبة ؟ ان كان الامر كذلك فهذا يجعلنى ادرك ان وسائلكم المتساهلة لها من الاثر ما للوسائل العنيفة ، ولكن ماذا حدث للحالات القليلة التى لم يعد أصحابها بعد الليلة الاولى ؟

فأجابه تشانج بكل هدوء :

ــ لقد توليت انت الاجابة على سؤالك . . انهم لم يعودوا بتاتا !

بيد انه اردف قائلا بسرعة :

ــ استطيع ان أؤكد لك مع ذلك ان هؤلاء المنكودين كانوا قلة ضئيلة حقا ، واعتقد ان صديقك لن يكون من الحماقة بحيث يزيد عددهم واحدا

ولم يجد كونواى فى ذلك ما يطمئنه تمام الطمأنينة ، فقد كان راغبا ان يعود الفتى ان امكن بالوسائل الودية ، فلما سئل تشانج فى ذلك قال :

ــ ان السلطات العليا لديها تفويض ان تصنع اى شىء ترى من الحكمة اتخاذه

ثم استطرد :

ــ ولكن هل نكون متوخين الحكمة حقا يا سيدى العزيز ان تركنا انفسنا ومستقبلنا كله معلقين بمدى شعور صديقك بالامتنان ؟

فاضطر كونواى ان يقر ان ذلك ليس من الحكمة ، لان سلوك مالينسون لم يدع لديه الا قليلا من الشك فيما ينتوى ان يصنعه بمجرد وصوله الى الهند

***

كل هذه المشاغل كانت جزءا من العالم الدنيوى الذى اخذ يبتعد عن ذهن كونواى تدريجيا ليخلى المكان لعالم شانجرى لا الغنى الشامل النفاذ . لقد أصبح راض رضى خارق للعادة ، الا حينما يفكر فى امر مالينسون . لم يكن فى يوم من الايام فى مثل هذه السعادة على ما يذكر ، حتى ولا فى الاعوام التى سبقت الحرب . لقد احب العالم المطمئن الذى اتاحه له شانجرى لا ، واحب ذلك الجو المهذب المريح الذى كان الكلام فيه عملا ذا قيمة ، لا مجرد عمل وحسب

احب على الخصوص ما تحققه من ان اقل الاشياء قيمة يمكن الآن ان يتحرر من لعنة اضاعة الوقت ، واصبحت اوهى الاحلام شيئا يرحب به العقل

ان هذا الدير كان هادئا مطمئنا على الدوام ، ولكنه كان على الدوام ايضا خلية من العمل المتئد ، فاللامات يعيشون وكان امامهم فسحة من الوقت كبيرة ، ولكنه وقت لا يثقل على كواهلهم الا كما تثقل ريشة

لم يقابل كونواى منهم اكثر ممن قابل ، ولكن شعر بالتدريج بمدى اعمالهم المختلفة ، ففضلا عن معرفتهم باللغات ، يبدو ان بعضهم كانوا يقومون بأعمال علمية متعمقة ، كانت حرية ان تدهش العالم الغربى دهشة كبيرة ، فكثيرون منهم كانوا مشغولين بكتابة المخطوطات ،

واحدهم قام بأبحاث ثمينة فى الرياضيات البحتة ، وكان آخر يكتب تاريخا فلسفيا للحضارة الاوربية

وتكررت مقابلاته للاما الاعظم على مر الايام . وكان يزوره فى كثير من الاحيان فى ساعة متأخرة من المساء ، ويبقى معه ساعات طويلة ، بعد ان يرفع الخدم آخر اقداح الشاى ، فيصرفهم سيدهم الى مخادعهم

وكان اللاما الاعظم لا يفتأ يسأله عن مدى تقدم وراحة زملائه الثلاثة ، وذات مرة سأله بوجه خاص عن انواع الاعمال التى لا بد ان وصولهم الى شانجرى لا قد قطعها

واجابه كونواى بعد تفكير قائلا :

ــ ان مالينسون ربما كان حريا ان يوفق فى وجهته ، فهو ناشط الحيوية طموح ، اما الآخران . .

ثم هز كتفيه ، واستطرد قائلا :

ــ فالحقيقة انه قد لمس ان البقاء هنا يوافقهما ، لمدة من الزمن على اى حال

وفطن الى ومضات من الضوء من خلال ستائر النافذة ، وكان الرعد يدوى حين عبر الافنية قادما الى هذه الحجرة التى اصبحت مألوفة لديه . ولم يسمع اى صوت وهو فى الحجرة ، لان الستائر السميكة كانت تحول البرق الخاطف الى ومضات باهتة اللون

وسمع اللاما يجيبه قائلا :

ــ أجل ، لقد بذلنا خير ما فى وسعنا كى نجعل كل منهما يشعر كانه فى بيته . والآنسة برنكلاو راغبة فى تبشيرنا ، اما المستر برنارد فلديه اسبابه الخاصة لتفضيل البقاء ، ولكن ماذا عن صديقك الشاب ؟

ــ انه هو الذى سيسبب اشكالا

ــ اخشى انه سيكون مشكلتك انت

ــ ولماذا مشكلتى انا بالذات ؟

فلم يسمع جوابا على الفور ، لان اقداح الشاى قدمت فى هذه اللحظة ، ومع ظهورها غير اللاما الاعظم الحديث فقال :

ــ سمعت انك كنت تتباحث مع زميلنا الفاضل برياك . . وهو مواطن تشرح الصدر صحبته ، وان كنت لا اشاركه رايه ان شوبان هو اعظم المؤلفين فى الموسيقى ، فانا شخصيا كما تعلم افضل موزار . .

وعلى هذا النحو استمر الحديث ، الى ان رفعت اقداح الشاى ، وصرف الخدم نهائيا ، وعندئذ ذكره كونواى بسؤاله الذى لم يحظ عليه بجواب قائلا :

ــ كنا نناقش مسألة مالينسون ، فقلت انه سوف يكون مشكلتى أنا ، فلماذا مشكلتى انا بالذات ؟

عندئذ اجابه اللاما الاعظم قائلا بكل بساطة :

ــ لاننى يا بنى على شفا الموت

وبدت له هذه العبارة خارقة ، فظل كونواى لا ينطق برهة ، وعندئذ استطرد اللاما قائلا :

ــ اتعجب لهذا ؟ ولكننا جميعا يا صديقى اشخاص فانون قطعا . . حتى فى شانجرى لا . . وقد يكون من الجائز انه لا تزال امامى بضع لحظات ، او ربما بضع سنوات ، فكل ما اعنيه هو هذه الحقيقة البسيطة ، وهى اننى اصبحت ابصر النهاية ، وانه لجميل منك ان تبدى هذا الاهتمام ، وانا شخصيا مسرور ، ولكنى اريد ان اعود نفسى هذا الاحساس الغريب فى الساعات الباقية لى ، لانه لم يعد امامى وقت الا لشىء واحد بعد ، فهل تستطيع ان تتخيل هذا الشىء لا

وصمت كونواى ، فقال اللاما الاعظم :

ـ انه شيء يتعلق بك يا ولدى ..

ـ انك تضفى على شرفا عظيما

ـ فى ذهنى ان افعل اكثر من ذلك كثيرا ..

فانحنى كونواى انحناء يسيرا ، ولكنه لم يتكلم ، وبعد ان تمهل اللاما الاعظم برهة ، استطرد قائلا :

ـ ربما ادركت ان كثرة مقابلاتنا ومحادثاتنا لم تكن شيئا مألوفا هنا ، ولكن ليست لدينا قواعد جامدة لا نجرؤ على كسرها . فنحن نضع ما نراه الاصلح ، مهتدين بما حدث فى الماضى حقيقة ، ولكن اعتمادنا فى الغالب على وحى الساعة . وعلى هذا الاساس اجد ما يشجعنى على الاقدام على تصرفى الاخير ..

واستمر كونواى لائذا بالصمت

ـ ... اننى اضع بين يديك يا بنى تراث شانجرى لا ومصيره ..

وهكذا تحطم التوتر ، وسبحت الاصداء فى الصمت حتى لم يبق مسموعا الا خفقات قلب كونواى وهو يدق كالطبل ، ثم اخترق ذلك الوجيب اللاما الاعظم بقوله :

ـ لقد لبثت انتظرك يا بنى زمنا طويلا ، كم جلست فى هذه الحجرات ورأيت وجوه القادمين ، كنت انظر فى عيونهم واسمع اصواتهم ، والامل يساورنى على الدوام ان اعثر بك يوما ما

« لقد شاخ زملائى وصاروا حكماء ، ولكنك انت الذى ما زلت شابا بحساب السنوات ، لك حكمتهم بالفعل

« يا صديقى ، ليس ما اعهد به اليك مهمة شاقة ، فان الدماثة والصبر ، والاهتمام بكنوز العقل ، والتشبث بالحكمة والتكتم حينما تكون العاصفة فى الخارج على اشدها ، كل ذلك سيكون هينا عليك ، محببا اليك ، وستجد فيه بلا ريب فائدة كبرى »

ومرة اخرى فتش كونواى عن جواب ، ولكنه لم يجد ، الى ان ومض برق خاطف جعل الاشباح تتوارى ، فاهتز وجدانه اهتزازا عنيفا ، وقال :

ـ هذه العاصفة .. التى تتحدث عنها ..

ـ ستكون يا بنى عاصفة لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل ، لن يكون هناك امان بالسلاح ، ولن تكون للسلطات حيلة ، ولن يكون فى العالم ملاذ ، انها ستعصف يا بنى الى ان تدوس كل زهرة من أزهار الثقافة ، وتسوى بالارض كل صروح البشرية فى خراب شامل . لن يكون هناك مهرب ولا ملاذ ، اللهم الا ما احتجب بحيث لا يعثر عليه ، او هان مظهره بحيث لا يفطن اليه ، وشانجرى لا يمكن ان يظفر بالصفتين . فالطيار الذى يحمل اثقالا من الموت للمدائن الكبرى لن يمر من طريقنا ، وان مر بطريق الصدفة فعسى الا يرانا نستحق قنبلة

ـ اعتقد انك ستعيش وتنجو من العاصفة ، وبعد ذلك ربما عشت الى ان ينتهى عصر الفجيعة ، فتغدو اسن واحكم واكثر صبرا ، وستحفظ اريج تاريخنا وتضيف اليه لمسة من لمسات عقلك . سوف ترحب بالغريب ، وتعلمه قاعدة السن والحكمة ، وربما خلفك واحد من هؤلاء الغرباء عندما تبلغ انت ايضا اقصى العمر ، اما ما بعد هذا

فبصرى يقصر عنه . بيد انى ارى على مسافة كبيرة عالما جديدا ينهض من بين الانقاض ، يموج فى جهالة ولكن فى امل ، ينقب عن كنوزه الاسطورية الضائعة ، ولكن هذه الكنوز كلها ستكون هنا يابنى ، مخبأة وراء الجبال فى وادى القمر الازرق ، حيث حفظتها المعجزة ، وادخرتها لبعث جديد ..

وانتهى الكلام ، فأبصر كونواى الوجه الذى امامه يفيض جمالا وبهاء ، ثم خبا الاشراق ، ولم يتخلف الا قناع تغطيه الظلال ، متغضن كانه الخشب العتيق

كان جامدا لا يتحرك وعيناه مقفلتان ...

ولبث كونواى يرقبه برهة ، وفجأة ، وكأنما هو فى حلم ، وقع فى روعه ان اللاما الاعظم مات ..

***

جلس كونواى مترددا على عتبة الدهليز المظلم ، ومن خلال النافذة كان يرى السماء الصافية ، وان كانت الجبال لا تزال تتلألأ فى برق كأنه رسوم من الفضة ..

ثم استغرقه حلم لذيذ ، راى فيه نفسه سيد شانجرى لا ، وراى اشياءه المحبوبة تحيط به ، وهى تنتمى كلها الى العقل الباطن الذى ظل يعيش فيه بلا انقطاع بعيدا عن ضجة العالم

وتعمقت عيناه فى الظلال ، الى ان استوقفتها نقط كرءوس الدبابيس الذهبية تلمع ، ورائحة بخور ضعيف الى درجة انها تكاد

تتلاشى على عتبة الاحساس جعلت تطوف به من حجرة الى حجرة

واخيرا غادر الحجرات كلها ، وانتهى الى الافنية ، وعلى شاطىء بحيرة اللوتس كان البدر المكتمل يمخر عباب السماء وراء قمة كاراكال . .

ثم انقضى وقت احس بعده ان مالينسون كان بالقرب منه ، قابضا على ذراعه ، يقوده الى بعيد فى عجلة شديدة

ولم يدرك لاول وهلة فيم كان كل ذلك ، وكل ما وعاه هو انه كان يسمع الفتى يتحدث بحرارة وتدفق

***

ووصلا الى قاعة الطعام ، وكان مالينسون لا يزال يقبض على ذراع كونواي ، ويكاد يجره جرا ، وهو يقول :

ـ هيا يا كونواي .. هيا ، ان لدينا متسع من الوقت حتى الفجر لنحزم حقائبنا ونرحل . اخبار عظيمة يا رجل ، وانى لأعجب ماذا سيظن برنارد ومس برنكلاو عندما يكتشفان فى الصباح اننا قد رحلنا . واحسب انه من الافضل ان نرحل بدونهما ، ان الحمالين ينتظروننا على بعد خمسة اميال من الممر ، لقد اتوا البارحة ومعهم احمال من الكتب والبضائع المختلفة ، وسوف يبداون باكر رحلة العودة ، ماذا بك ؟ هل انت مريض ؟

وكان كونواي قد غاص فى كرسيه ، واخذ يمر بيده على عينيه ، قبل ان يقول :

ـ كلا .. انني لست مريضا ، ولكنى متعب قليلا



— ربما كان ذلك من اثر العاصفة ، أين كنت طوال الوقت ، لقد انتظرتك ساعات طويلة ؟

— كنت .. كنت ازور الكاهن الاعظم

— آه ، ذلك الرجل ، حسنا .. اذن فقد كانت الزيارة الاخيرة ، فلنشكر الله على كل حال ، والحمد لله

— اجل يا مالينسون ، كانت الزيارة الاخيرة ..

— اتمنى لو لم تكن غير مكترث بالامر هكذا ، يجب ان نسرع كما تعلم

وحاول كونواى ان يتماسك ، ولكى يهدىء اعصابه اشعل سيجارة ، فوجد ان يديه وشفتيه ترتعدان

— اخشى اننى لم اتابع حديثك تماما .. اكنت تقول ان الحمالين ..

— اجل ، كنت اتكلم عن الحمالين يا رجل ، اصغ الى ..

— اتفكر فى الخروج لمقابلتهم بعيدا ، على الجبل ؟

— افكر ؟ .. اننى مصمم ، انهم ينتظرون عند نهاية هذا الجبل ، ويجب ان نبدأ رحيلنا فى الحال

— فى الحال ؟ ! ..

— طبعا ، طبعا .. ولم لا ؟

فبذل كونواى جهدا كى ينقل نفسه من عالم الى آخر ، ثم قال اخيرا :

— اعتقد انك تدرك ان الامر قد لا يكون من السهولة كما تتصور

وكان مالينسون مشغولا بربط احذية جبلية تصل الى الركبة ، مما يرتديه اهل التبت ، وهو يجيبه :

— انى مدرك كل شىء ، ولكنها خطوة لا مناص من اتخاذها ، وسنقدم عليها ويواتينا الحظ اذا لم نتاخر

— لست ارى كيف ..

— سبحان الله ، ايجب ان تخاف يا كونواى من كل شىء ؟ الم تبق فيك بقية من جراة ؟

وكانت هذه المناشدة التى نصفها حماس ، ونصفها الآخر يميل الى الزراية ، حافزا لكونواى ان يفيق لنفسه ، فقال :

— انها مسالة تتوقف على بضعة تفاصيل هامة ، لنفرض انك تجاوزت الممر ووجدت الحمالين هناك ، ما ادراك انهم سيأخذونك معهم ؟ انك لا يمكن ان تقدم نفسك ، وتطلب صحبتهم بكل بساطة ، بل لا بد من تدبير سابق ..

فقال مالينسون وقد فرغ صبره :

— ان كل شىء قد دبر ، وقد دفع الى الحمالين اجرهم مقدما ، وقد قبلوا ان يأخذونا معهم . وها هى الملابس والادوات اللازمة للرحلة كلها جاهزة ، فتعال ننطلق ..

— ولكنى لست فاهما ، ما الذى رتب كل هذه الخطط ؟

فأجابه مالينسون بقوله :

— لوتسين ، مادمت حريصا على ان تعرف ، وهى الآن مع الحمالين ، انها تنتظرنا هناك

— تنتظرنا ؟ ! ..

— اجل ، انها ستأتى معنا ، ولا اظنك تعارض ؟

***

وما ان ذكر له لوتسين حتى التقى العالمان ، ثم اختلطا فجاة فى ذهن كونواى ، وصاح بحدة :

— هذا هراء ، انه مستحيل

وكان مالينسون ايضا متوتر الاعصاب ، فصاح :

ــ ولماذا هو مستحيل ؟

ــ لانه .. مستحيل . هناك اسباب من كل نوع ، فثق بكلمتى واعلم ان هذا غير ممكن ، بل من غير المعقول ان تكون هى هناك الآن : اما كونها تبتعد اكثر من ذلك ففكرة بشعة

ــ لست اراها بشعة على الاطلاق ، فمن الطبيعى بالنسبة لها ان ترغب فى مغادرة هذا المكان ، كما ان ذلك طبيعى بالنسبة لى

ــ ولكنها لا تريد ان تذهب ، هذا هو موضع خطئك ، لقد اخبرتك دواما انها هنا فى سعادة تامة

ــ اذن لماذا قالت لى انها تريد ان تأتى ؟

ــ وكيف استطاعت ذلك ؟ انها لا تتكلم الانجليزية

ــ لقد سألتها باللغة التبتية ، فقد علمتى الآنسة برنكلاو ماذا اقول لها . .

فترك كونواى السيجارة تسقط من بين اصابعه ، وشعر بالتعب واضطراب افكاره ، وسأله برقة :

ــ واين تظنها تذهب ان هى خرجت من هنا ؟

ــ اظنها ولا شك تعرف اصدقاء فى الصين او غيرها من البلاد ، وسوف تكون على كل حال احسن حالا فى اى مكان آخر

ــ وكيف يمكن أن تكون هكذا واثقا من ذلك ؟

ــ سأهتم انا برعايةشانها اذا لم يقم بذلك احد ، ثم انك حين تنقذ احدا من مكان جهنمى ، لا يليق ان تقف لتتساءل فى اى مكان آخر سيقيم هذا الشخص

ــ وهل تظن شانجرى لا مكانا جهنميا ؟

ــ انا بالتأكيد اراه كذلك ، فهناك شىء مظلم وشرير حول المكان .

وقد كان الامر كله على هذه الصورة منذ البداية ، فالطريقة التى جىء بنا بها الى هنا ، بغير مبرر على الاطلاق ، وعلى يد رجل مخبول ، وطريقة احتجازنا هنا منذ ذلك الوقت بحجة او بأخرى توحى بذلك ، ولكن اشنع ما فى الموضوع هو التأثير الذى حدث فيك

ــ فى انا ؟ . .

ــ نعم فيك انت ، انك اصبحت غير مكترث لشىء ، بل غدوت راضيا بالبقاء هنا الى الابد ، حتى لقد صرحت انك تأنس الى هذا المكان ، فما الذى حدث لك يا كونواى ؟ يجب ان تثوب الى نفسك مرة اخرى . لقد كنا على خير وفاق فى باسكول ، فقد كنت مختلفا جدا فى تلك الايام عما صرت اليه الآن

ــ يا فتاى العزيز . .

ومد كونواى يده نحو مالينسون ، فكانت ضغطة اليد التى تلقاها حارة تنم عن مودة متلهفة ، واستطرد مالينسون قائلا :

ــ لا اظنك تبينت اننى كنت اشعر بوحدة فظيعة فى الاسابيع الاخيرة ، اذ كان يبدو انه ما من احد يهتم اقل اهتمام بالشىء الجدير باهتمامنا ، ولئن كانت لدى برنارد والآنسة برنكلاو اسبابهما ، الا انه كان من الفظيع ان اجدك انت ايضا ضدى

فتكلم كونواى بباعث مفاجىء قائلا :

ــ دعنى اوضح لك الامر ، وسأذكر لك شيئا آمل عندما تسمعه ان تفهم الكثير مما يبدو لك الآن غريبا عسيرا . وعلى كل حال سوف تدرك لماذا لا يمكن ان تعود معك لوتسـ ين

ــ لا اظن شيئا على الاطلاق يمكن ان يحملنى على ذلك الاعتقاد ، وارجوك ان توجز ما استطعت لانه لم يعد امامنا وقت

وعندئذ اوجز له كونواى على قدر استطاعته كل قصة شانجرى لا كما اخبره بها اللاما الاعظم ، وكان ذلك آخر ما كان ينوى ان يفعله ، بيد انه شعر ان الظروف تبرر ذلك بل تحتمه . لقد كان مالينسون حقا هو مشكلته التى ينبغى ان يحلها على الطريقة التى تتراءى له

وجعل يروى القصة فى سرعة ويسر ، وفيما هو يفعل ذلك عاد اليه ذلك التأثير السحرى الغريب الذى ادخله فى عالم لا يخضع للزمن ، وطفت عليه فتنة ذلك العالم وهو يتكلم عنه ، حتى انه فى اكثر من مرة شعر كمن يقرأ صفحة من كتاب ذكرياته ، لفرط ما بدت له المعانى والعبارات واضحة فى نفسه ، ولم يخف عنه شيئا الا نبأ وفاة اللاما الاعظم تلك الليلة ، ووراثته اياه

ولما قارب ختام القصة ، شعر براحة ، فقد سره ان ينتهى منها ، وكان هذا هو الحل الوحيد ، فرفع رأسه بهدوء عندما فرغ ، وهو واثق انه احسن صنعا ، بيد ان مالينسون دق المائدة بأصابعه ، وقال بعد برهة :

ــ لست ادرى ماذا اقول يا كونواى ، اللهم الا انك قد جننت تماما !

وتلت ذلك برهة صمت طويل ، كان فيها الرجلان يحدق كل منهما فى الآخر ، واخيرا ساله كونواى :

ــ اذن فانت تظن اننى مجنون ؟ . .

فانطلق مالينسون يضحك ضحكة عصبية ، ثم قال :

ــ لا بد لى من ان اقول ذلك بعد حكاية كهذه ، اعنى انها حقيقة هذيان ، وتبدو غير صالحة للمناقشة ! . .

فاستولت على كونواى دهشة عظيمة ، وقال :

ــ اتراها حقا هذيان ؟

ــ وكيف يمكن ان اراها غير ذلك ؟ انى آسف يا كونواى ، فهذا رأى عنيف بعض الشىء ، ولكنى لا ارى كيف يمكن لاى شخص عاقل ان يتردد فى امر قصتك

ــ اذن فانت لا تزال تعتقد انه جىء بنا الى هنا بالمصادفة العمياء ، على يد مخبول وضع خططا دقيقة ليهرب بطائرة ، فيطير بها الف ميل لمجرد المتعة والدعابة ؟

وقدم له كونواى سيجارة فأخذها مالينسون ، ويبدو ان كلا منهما كان مستريحا لمهلة الصمت هذه ، واخيرا قال مالينسون :

اسمع . . . لا جدوى فى المحاولة ، ان كل هذا الكلام عن تعمير اللامات مئات السنين ، وانهم اكتشفوا سر الشباب ، كل ذلك مستحيل تماما ، وهذا كل ما فى الامر

فابتسم كونواى وقال :

ــ اجل ، اراك تجد صعوبة فى تصديق ذلك ، وانا ايضا وجدت تلك الصعوبة فى بداية الامر كما اذكر . وهى فعلا قصة خارقة ، ولكنى اعتقد انك رايت بعينك ما يدل على ان هذا المكان خارق . فكر فى كل ما رايناه رأى العين ، فهذا واد ضائع وسط جبال لم تكتشف ، وهذا دير فيه مكتبة من الكتب الاوربية

ــ اجل . . وتدفئة مركزية عصرية ، ودورات مياه عصرية ، وشاى ما بعد الظهر ، وكل شىء ايضا على ما يرام ، وعلى آخر طراز . . كل هذا رائع

ــ اذن ماذا تستنتج من هذا كله ؟

ــ هذا سر غامض تماما ، ولكن هناك اختلافا كبيرا بين التصديق بوجود حمامات ساخنة لانك استخدمتها ، وبين التصديق بتعمير

اشخاص مئـات السنين لا لشيء الا لانهم قالوا لك ذلك . اسمع يا كونواى ، لقد تعبت اعصابك من هـذا المكان ، ولست استغرب ذلك ، فاحزم امتعتك ، ولنرحل . .

فأجابه كونواى بهدوء قائلا :

ــ ليست عندى اية رغبة فى العودة الى الهند

ــ اتعنى انك سوف لا تأتى معى ؟ وانك ستبقى هنا مثل صاحبينا الآخرين ؟ اذن لا تحل على الاقل بينى وبين الرحيل . .

والقى مالينسون سيجارته ، ثم اندفع نحو الباب وعيناه تتوهجان، وهو يصيح فى هياج :

ــ انك مجنون يا كونواى ، هذا هو حالك الآن ، انا اعلم انك دائما هادىء ، واننى دائما ثائر الاعصـاب ، ولكنى عاقل على كل حال ، وانت مجنون ، لقد حذرونى من ذلك قبل ان انضم اليك فى باسكول ، وحسبتهم مخطئين . ولكنى ارى الآن انهم لم يكونوا مخطئين . .

ــ وما الذى حذروك منه ؟

ــ قالوا لى انك اصبت فى الحرب ، وان اطوارك تجنح الى الغرابة احيانا منـــذ ذلك الحين . وانا اعلم انه لم تـكن لك فى ذلك حيلة ، والله اعلم اننى اكره ان احدثك بهذه اللهجة ، فهـــذا امر يؤلمنى ويزعجنى ، ولكن لا بد ان امضى ، فقد وعدت . .

ــ وعدت لوتسين ؟

ــ نعم . . ان كنت حريصا ان تعرف

فنهض كونواى ، ومد يده قائلا :

ــ وداعا يا مالينسـون

ــ للمرة الاخيرة اسألك . . الست آتيا ؟

ــ لا استطيع . .

ــ وداعا اذن . .

وتصافحا . . . وانطلق مالينسون

وجلس كونواى وحده فى ضوء المصباح ، وبعد ان فكر برهة من الزمن نظر فى ساعته ، فوجد باقيا على الساعة الثالثة عشر دقائق

وكان لا يزال يجلس الى المائدة يدخن آخر سجائره عندما دخل مالينسـون . ودخل الشاب بشيء من الاندفاع ، ورآه يقف فى مكانه بين الظلال كمن يستجمع جأشه ، فلما طال صمته ، قال له كونواى :

ــ ما الذى حدث ؟ لماذا عدت ؟

وكانت لهجة السؤال الطبيعية كافية لان يتقدم مالينسون فيخلع ما عليه من فراء الغنم الثقيل ويجلس . كان وجهه كالحا وجسمه كله يرتعد ثم صاح وهو يكاد ينتحب :

ــ لم تطاوعنى اعصابى ، لقد وصلت الى حافة الهضـبة ، ثم لم اقدر ، انا لا احتمل المرتفعات . وكانت مخيفة فى ضوء القمر ، انها بلاهة منى ، اليس كذلك ؟

ثم انهار تماما ، وبدأ يهذى الى ان هداه كونواى ، فقال :

ــ لا حاجة بأهل هـذا المكان ان يخافوا ، فما من احـد يمكن ان يهددهم بطريق البر ، ولكن صدقنى اننى مستعد ان ادفع اى ثمن كى اطير فوق هذا المكان بشحنة من القنابل !

ــ ولماذا تريد ان تفعل ذلك يا مالينسون ؟

ــ لان هذا المكان يستحق الهدم ايا كان . . انه سقيم وقذر ، واذا صحت روايتك التى يتعذر تصديقها ، لكان ذلك ادعى الى الكراهية ! تصور حفنة من العجـائز قابعين هنا مثل العناكب ، ليقتنصوا اى

شخص يقترب منهم ، هذه قذارة . ومن الذى يريد على كل حال ان يعمر كل تلك السن ، لقد حان ان يخلصه احدهم من شقائه . لماذا لا تريد ان تأتى معى يا كونواى ؟ انا اكره ان اتوسل اليك من اجل نفسى ، ولكننى شاب ، وقد كنا على صـــداقة ومودة ، فهل حياتى كلها لا تعنى عندك شيئا بالقياس الى اكاذيب هذه المخلوقات البشعة ؟ ثم هناك لوتسين ايضا .. انها شابة كذلك .. اليس لها حســاب ؟

ــ لوتسين ليست شابة ..

فحملق فيه مالينســـون ، ثم بدأ يتلعثم بعصبية ويرتجف ، ثم قال لكونواى :

ــ انها شابة ، انها تبدو فى نحو السابعة عشرة ، ولكنى احسبك ستقول لى انها فى الواقع تبلغ التسعين ..

ــ لقد حضرت الى هنا يامالينسون سنة ١٨٨٤

ــ انك تهرف يا رجل

ــ ان جمالها يامالينسون ، كأى جمال آخر فى الدنيا ، تحت رحمة من لا يقدرونه قدره ، انه شىء رقيق لا يمـكن ان يعيش الا حيث تكون هذه الاشياء الرفيعة موضع اعزاز ، فاخرج بهذا الجمال من هذا الوادى ، وستراه يتلاشى كالصدى

فضحك مالينسون ضحكة خشنة ، كأن خراطره تمده باليقين ، وقال :

ــ لست خائفا من هذا ، فهى صدى فى هذا المكان فحسب ، هذا ان كانت صدى فى اى مكان اطلاقا . انى اريد ان اساعدك يا كونواى ، ومع علمى ان المسألة كلها تخريف ، الا انى مستعد ان اجادلك فيها ، اذا كان فى هذا خير لك ، وسأسلم انها ممكنة ، وانها تستحق النظر ، ولكن قل لى بجد ما هو دليلك عليها ؟

فسكت كونواى ، واستطرد مالينسون قائلا :

ــ كل دليلك ان احدهم نسخ لك قصة خرافية ، ما كنت لتقبلها بغير بينة ، فأى بينة لديك على هذا الموضوع ؟ لا بينة على الاطلاق فيما ارى . هل اخبرتك لوتسين يوما بقصتها ؟

ــ كلا ، لكن ...

ــ اذن لماذا تصدق ما يقوله شخص آخر عنها ؟ ثم مسألة طول العمر هذه ، هل لديك حقيقة واحدة يمكن ان تؤيدها ؟

ففكر كونواى لحظة ، ثم اشار الى اعمال شوبان المجهولة للعالم ، والتى عزفها له برياك ، فقال مالينسون :

ــ هذه مسألة لا تعنى شيئا بالنسبة لى ، فأنا لست موسيقيا ، وحتى ان كان ذلك صحيحا ، ألم يكن من الممكن ان يكون قد حصل على هذه المقطوعات بطريقة اخرى ، من غير ان تكون قصة صادقة ؟

ــ هذا ممكن بلا ريب

ــ ثم تلك الوسيلة التى تقول انها موجودة للاحتفاظ بالشبـاب وما الى ذلك ، ما هى ؟ هل اطلعك احد على حقائق ثابتة بصددها ؟

ــ ليس بالتفصيل ..

ــ الم تسأل مطلقا عن التفاصيل ؟ الم يخطر لك ان مثل هــذه القصة تحتاج الى اثبات مطلقا ؟ لقد رأيت حفنة من العجائز ، وهذا كل ما هنالك ، وفيما عدا ذلك تستطيع فقط ان تقول ان المكان معد اعدادا حســـنا ، وتديره ايد ذات دراية ، ولكن لا علم لنا بكيفية اقامته ، ولا بسبب قيامه ، ولا لماذا يريدون القاءنا هنا ان استطاعوا . ولكن هذا على كل حال لا يصلح مبررا لتصديق اى اسطورة عتيقة تروى لنا . انك بعد كل شىء يا رجل من الطراز الذى يميل للنقد . واحسبك خليقا ان تتردد فى تصديق كل هذا الذى قيل لك ، حتى ولو كان ذلك دير انجليزى ، فلست ارى السبب الذى يحدو بك

للتهافت على تصديق كل شيء لمجرد انك فى التبت

فأوما كونواى براسه وقال :

ــ هذه ملاحظة ثاقبة يا مالينسون ، والحقيقة اننا فيما يتعلق بتصديق اشياء ليس عليها دليل فعلى ، فنحن جميعا اميل لتصديق ما نجده جذابا

ــ لست ارى اى جاذبية فى ان يعمر الانسان الى ان يمسى نصف ميت ، وانا افضل ان اعيش حياة قصيرة مرحة ، اما كلامهم عن الحرب القادمة ، فيبدو هزيلا فى نظرى . فمن الذى يدرى متى تقع الحرب القادمة ، أو كيف ستكون ؟ الم يخطىء جميع المتنبئين بصدد الحرب الماضية ؟

ولما لم يجبه كونواى ، استأنف كلامه :

ــ الله اعلم اننى مضطرب فزعا من القتال فى حرب اخرى ، ولكنى افضل مواجهة ذلك من دفن نفسى هنا

فابتسم كونواى وقال :

ــ يا مالينسون ، انك تسىء فهمى ، لقد كنت اعتقد ونحن فى باسكول اننى بطل ، وهاانت الآن تعتبرنى جبانا ، والواقع اننى لست هذا ولا ذاك وان لم تكن لهذا الامر قيمة ، ولك عندما تعود الى الهند ، ان تقول للناس ان شئت اننى قررت البقاء فى دير بالتبت لاننى خائف من حرب اخرى قد تقع ، ولكن هذا ليس سبب بقائى مطلقا ، وان كنت لا اشك فى ان ما تقوله سيصدقه كل الذين يعتبروننى مجنونا بالفعل

فأجابه مالينسون :

ــ من البلاهة كما تعلم ان تتحدث بهذه اللهجة ، فمهما حدث لن اقول كلمة ضدك ، وتستطيع ان تثق بذلك ، واننى اعترف اننى

لا افهمك ، لكنى اتمنى لو استطعت .. الا استطيع يا كونواى ان اساعدك ، اليس هناك ما اقوله او افعله ليجدى عليك ؟

وساد صمت طويل ، قطعه كونواى اخيرا بقوله :

ــ هناك سؤال احب ان اسأله ، ان غفرت لى تدخلى فى شأن شخصى جدا

ــ نعم

ــ اتحب لوتسين ؟

فتحول شحوب الفتى بسرعة الى حمرة ، وقال :

ــ اجرؤ ان اقول انى احبها ، واعلم انك ستقول ان هذا سخف ، وربما كان ذلك ، ولكن لا حيلة لى فى مشاعرى

ــ لا ارى ذلك سخفا على الاطلاق ، وكذلك انا لا حيلة لى فى مشاعرى . انك انت وهذه الفتاة الشخصان الوحيدان فى العالم اللذان اهتم بأمرهما ، وان كان هذا يبدو غريبا لك

وفجاة نهض وراح يذرع الحجرة ، ثم قال :

ــ لقد قلنا كل ما نستطيع ان نقول ، اليس كذلك ؟

ــ اظننا فعلنا

فذهب كونواى الى الشرفة ، وراح يحدق فى قمة كاراكال المتلألئة ، وكان القمر يمخر عاليا فى محيط ليست به امواج ، وخطر له ان حلمه قد تبدد كما تتبدد سائر الاشياء المحبوبة عند اول لمسة من لمسات الواقع . ولم يدر هل كان مجنونا ، ام هو الآن عاقل ، ام تراه كان عاقلا فترة من الزمن ، ثم هاهو قد ارتد الآن مجنونا

ولما عاد الى مالينسون كان قد حدث فيه تبدل ، فصوته اصبح قاطعا ، ووجهه متغضن قليلا ، وقد أزداد شبهه كثيرا بكونواى الذى كان بطلا فى باسكول ، وواجه مالينسون بتحفز جديد مفاجىء وسأله :

— اتعتقد انك تتحمل الرحلة ان كنت معك ؟

فوثب مالينسون الى الامام وصاح بصوت متحشرج :

— كونواى .. اتعنى انك قادم ؟ هل حزمت امرك اخيرا ؟

وتأهب كونواى للسفر ورحلا معا ، وكان الرحيل بسيطا بصورة مدهشة .. اجل كان رحيلا اكثر منه هروبا ، فلم تقع حوادث وهما يجتازان حواجز ضوء القمر والظلال فى الافنية

وما اعجب ان تنتهى مناقشتهما الطويلة بهذا العمل ، وان يغادر هذا الملاذ السرى شخص وجد فيه كل هذه السعادة ، وبعد اقل من ساعة وقفا بالفعل لاهثا الانفاس عند منحنى الطريق ليلقيا النظرة الاخيرة على شانجرى لا . وعلى بعد سحيق تحتهما كان وادى القمر الازرق يبدو وكأنه سحابة

الآن اذن حلت لحظة الوداع . اما مالينسوى الذى كان الصعود الحاد قد ابقاه صامتا برهة ، فقال متعجلا :

— لقد قطعنا مسافة طيبة .. استمر !

فابتسم كونواى ولم يجب . لقد صدق الفتى حين قال انه حزم اخيرا امره ، لقد كان جدالا يحدث بين عالمين ، ولابد ان يظل كذلك ، بيد ان كل ما شعر به الآن هو انه يحب مالينسون ويحب ان يساعده ، فقد كتب عليه كما كتب على ملايين الناس سواه ، ان يفروا من الحكمة ليظفروا بالبطولة

وعند حافة الهاوية المنحدرة ، كان مالينسون عصبيا جدا ، بيد ان كونواى استطاع ان يجتازها به على طريقة متسلقى الجبال التقليدية ، وقد ربطه فى حبل ، فلما انتهت المحنة عكفا معا على سجائر مالينسون الذى قال :

— يجب يا كونواى ان اقول انك كنت كريما معى ، وربما استطعت ان تحدس حقيقة شعورى ، لاننى لا استطيع ان اعبر لك عن مبلغ سرورى ...

— لو كنت فى مكانك لما حاولت

وبعد سكون طويل ، وقبل ان يستأنفا رحلتهما ، قال مالينسون :

— ولكنى سعيد جدا ، لا من اجل نفسى فحسب ، بل من اجلك انت ايضا ، فما اروع ان اراك وقد عدت كما كنا نعهدك دائما ..

وقرب الفجر تمكنا من اجتياز الفاصل ، من غير ان يتعرض لهما الحراس ، ثم وصلا بعد ذلك الى الهضبة وقد هبت عليهما رياح مزمجرة بخرتهما كما تبخر العظام

وبعد هبوط تدريجى بدا لعينيهما معسكر الحمالين ، ثم حدث كل شىء على ما ذكره مالينسون من قبل ، اذ كان الرجال على استعداد لاستقبالهما واصطحابهما وكانوا رجالا اشداء ، ملتفين بالفراء واصواف الغنم ، رابضين تحت العاصفة الثلجية متلهفين ان يبدأوا رحلتهم الى تاتش فو ، على مسافة الف ومائة ميل الى جهة الشرق ، على حدود الصين

فلما التقيا بلوتسين ، صاح مالينسون بحماس عظيم :

— انه آت معنا !

ونسى المسكين انها لا تعرف الانجليزية ، ولكن كونواى تولى الترجمة ، وخيل اليه انها لم تكن يوما فى مثل ذلك الاشراق ، ومنحته اشد ابتساماتها سحرا ، اما عيناها فكانتا بمجموعهما منصرفتين الى الفتى ..

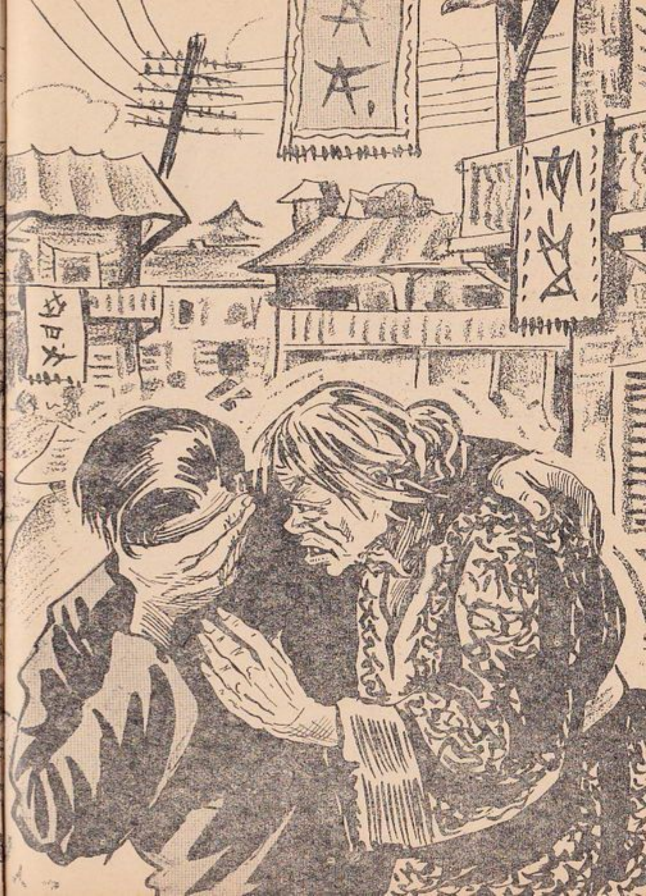
***

وفي مدينة دلهى قابلت رذرفورد مرة اخرى ، بعد ان علمت من الصحف انه عاد منذ وقت قصير من كاشار

وما ان التقيت به حتى بادرته قائلا :

ــ اذن فقد كنت تبحث عن كونواى ؟

ــ لم اكن « ابحث » بالمعنى الصحيح للكلمة ، فانك لا تستطيع ان تبحث عن رجل فى بلاد تبلغ مساحتها نصف قارة اوربا ، كل ما استطيع ان اقوله هو اننى زرت اماكن كنت ارجح ان القاه اواسمع عنه فيها . وكانت آخر رسائله الى ، كما تذكر ، هى تلك التى قال فيها انه ترك بانجكوك متجها الى الشمال الغربى . وانا ارى انه لابد وان يكون قد اتجه الى الحدود الصينية ، بيد اننى لم اتمكن من اقتفاء أثره تماما فى تلك الانحاء ، على كل حال



ـ لعلك وجدت انه من الاسهل ان تبحث عن وادى القمر الازرق ؟

ـ حسنا ، لقد بدت هنا فكرة افضل ، اعتقد انك قرات المخطوط الذى سلمته لك ، فما رايك فيه ؟

ـ لقد رايته جديرا بالبحث والتأمل حقا ، على اننى اظن انك سجلت قصة كونواى كما سمعتها منه بدقة تامة

ـ لقد سبق ان قلت لك عند تقديم المخطوط ، اننى سجلت القصة كما سمعتها تماما ، ولم اضف شيئا من عندى على الاطلاق

ـ حسنا ، اذن فالقصة ، كما قلت لك ، عجيبة جدا ، وجديرة بالبحث والتأمل

وهنا اضطجع رذرفورد فى كرسيه ، وابتسم ، قائلا :

ـ اذا كان هذا هو كل ما تستطيع ان تقوله ، فسوف اتكلم انا . . لقد اخذت بقصة كونواى ، ولهذا فقد شعرت بالاهتمام بمتابعتها ومعرفة مداها من الصحة

واستأنف رذفورد حديثه بعد أن اشعل سيجارا :

ـ وكان معنى هذا اننى يجب ان اسافر الى مسافات بعيدة ، ولكنى احب السفر كما تعلم ، ولقد قطعت آلاف الاميال فعلا ، وزرت باسكول ، وبانجكوك ، وتشانج كنج ، وكاشار . لقد كان اللغز الغامض يرقد فى مكان ما وسط هذه المساحات الهائلة من الارض ، ولكنى بطبيعة الحال لم اقطع هذه المساحة طولا وعرضا ، وهكذا لم اطلع الا على اطراف من السر الدفين فحسب

ـ وهكذا لم نجد شيئا فى بلاد التبت

ـ يا صديقى العزيز ، اننى لم اصل الى بلاد التبت على الاطلاق ، ان التجول فى هضبة التبت لا يستطيعه رجل بمفرده ، انه يستلزم مجموعة كاملة من الرحالة المستكشفين المجهزين بشتى الادوات والمعدات ، يقودهم رجل يعرف لغة اهل تلك البلاد . ولقد عجبت حين قص على كونواى قصته ، بدرجة اهتمامهم بوصول الحمالين

حين كانوا فى الدير ، ولماذا لم يشرعوا فى السير بانفسهم نحو الهند او الصين ، ولكنى سرعان ما اكتشفت السبب بعد ذلك . ان اى جواز سفر فى العالم لا يستطيع ان يمر بك فوق جبال « الكوين لينز » التى اعتقد انها اقل جبال العالم استقبالا للرحالة ، ولقد كان من حسن حظى اننى قابلت امريكيا حاول ذات مرة ان يعبر هذه الجبال ، فلم يجد الممر الذى يمكنه من ذلك . ولقد قال لى ان هناك عدة ممرات ولكنها مرتفعة جدا ولا توجد على الخرائط . ولقد سألته عما اذا كان قد سمع ذات مرة عن جبل مخروطى الشكل يبلغ فى ارتفاعه ما تبلغه قمم الهملايا ، فكان جوابه مثيرا للاهتمام حقا ، اذ قال انه توجد اسطورة عن مثل هذا الجبل ، ولكنه غير متأكد من صحتها

« ولقد سألته ايضا عما يعرفه عن الاديرة فى بلاد التبت ، فقدم الى الحقائق العادية التى نجدها فى الكتب ، ثم طرقت الموضوع الذى اقصده مباشرة ، وسألته عما اذا كان قد سمع قصصا معينة عن كهنة يطيلون الاعمار فى تلك الاديرة ، فأجاب بانه سمع عشرات من تلك القصص . ولما سألته اذا كان يظن ان هؤلاء الكهنة يملكون وسائل سحرية او طبيعية لاطالة الحياة او الاحتفاظ بالشباب ، اجاب بانه يعرف ان لديهم معلومات غريبة كثيرة فى هذا الشأن . . يعرف هذا من القصص التى سمعها من اهل البلاد التى تجول فيها ، ولكنه لا يملك دليلا شخصيا اكيدا على صحة هذا الكلام »

وتوقف رذرفورد عن الكلام برهة ، ليشعل سيجارا ، فسألته :

ـ وهل كانت اسماء « كاراكال » و « شانجرى لا » تعنى شيئا خاصا بالنسبة لهذا الرحالة الامريكى ؟

ـ كلا . . ولقد ظللت القى الاسئلة على هذا الرجل ، فقال انه فى الواقع لم يهتم كثيرا خلال رحلاته بموضوع الاديرة فى بلاد التبت ، وانه قابل ذات مرة ، خلال تجواله فى التبت ، رجلا حاول ان يقنعه بزيارة أحد الاديرة ، فرفض . وشاقنى هذا الجزء من حديث الرحالة الامريكى ، فاستزدته ايضاحا ، فقال انه كان موقدا فى عام ١٩١١

الى بلاد التبت من قبل جمعية جغرافية امريكية ، للحصول على معلومات معينة ، وكان معه عدد من الرحالة والحمالين وغيرهم حين قابل رجلا صينيا محمولا على كرسى بواسطة رجال من اهل تلك البلاد ، وتفرس فيه الصينى ، والح عليه بلغة انجليزية سليمة ان يزور دير معين قريب ، وعرض ان يقودهم فى الطريق الى ذلك الدير ، ولكن الامريكى اعتذر بضيق الوقت ، وبأنهم غير شغوفين بدراسة الاديرة بالذات ..

وصمت رذرفورد لحظة ، ثم قال :

ـ هذه هى قصة الرجل الامريكى ، ولكننى لا استطيع ان اعول عليها كثيرا فى استنباط الحقائق ، فانه من الصعب ان يروى الانسان التفاصيل بدقة فى قصة حدثت منذ عشرين عاما

ـ ولكن لنفرض ان تلك الجماعة من الرحالة كانت قد قبلت الدعوة لزيارة الدير ، فلا شك انه كان من الصعب جدا ان يستبقوهم رغم ارادتهم

ـ طبعا ، وربما كان الدير المقصود هنا شيئا آخر غير شانجرى لا ، على الاطلاق

واخذنا نقلب هذا الامر على وجوهه ، ولكنه بدا غامضا ، فسألت رذرفورد اذا كان قد اكتشف شيئا آخر فى باسكول ، فقال :

ـ كلا .. لا فى باسكول ولا بيشاوار ، لم يستطع احد فى هذين البلدين ان يخبرنى بشىء عن قصة خطف الطائرة

ـ الم يسمع احد شيئا عن الطائرة بعد ذلك ؟

ـ لا شىء على الاطلاق عن الطائرة او ركابها . ولقد فهمت من ذلك انها عبرت الحدود فوق الجبال الشاهقة بمهارة فائقة . ولقد حاولت ايضا ان اتتبع انباء المدعو برنارد ، فوجدت تاريخه غامضا ، حتى اننى لا استبعد ان يكون هو فعلا « كلمرز بريانت » ، كما قال كونواى . وعلى اى حال فان اختفاء بريانت التام كان امرا يدعو الى العجب

ـ وهل حاولت ان تكشف عن السارق الحقيقى للطائرة ؟

ـ لقد حاولت ولكن بلا جدوى ، لان الطيار الذى طرحه السارق ارضا وانتحل شخصيته كان قد قتل ، ولكننى توصلت الى اكتشاف آخر غريب ، فقد كان هناك استاذ المانى فى « جينا » حول منتصف القرن الماضى ، زار بلاد التبت فى عام ١٨٨٧ ، ولم يعد بعد ذلك على الاطلاق ، وانتشرت اشاعة انه غرق فى احد الانهار اثناء سفره ، وكان اسمه « فردريك ميستر » ..

ـ ياللسماء .. انه اسم من الاسماء التى ذكرها كونواى !

ـ اجل ، ولكن الامر قد يكون محض مصادفة

ـ غير انه شىء غريب

ـ نعم .. غريب جدا

ـ وهل نجحت فى اقتفاء اثر الآخرين ؟

ـ كلا ، لانه لم تكن لدى اسماء كثيرة مع الاسف ، لم اجد اية معلومات عن تلميذ شوبان المدعو برياك ، مع ان هذا لا يؤكد لنا بطبيعة الحال عدم وجوده فعلا ، والواقع ان كونواى لم يذكر لنا اسماء كثيرة فى قصته ، اذ انه لم يعطنا سوى اسما او اسمين من بين خمسين من الكهنة كانوا يعيشون فى شانجرى لا ، اما بيرولت وهنشل ، فلم استطع الحصول على اية معلومات عنهما او عن ماضيهما

ـ وماذا عن مالينسون ؟ الم تحاول ان تعرف ماذا حدث له ؟ وتلك الفتاة .. الفتاة الصينية ؟

ـ يا صديقى العزيز ، لقد حاولت ذلك طبعا ، ان الغريب فى قصة كونواى ، كما لا بد انك قدلاحظت خلال قراءتك للمخطوط ، انه انهى القصة عند ترك الوادى مع الحمالين ، ولم يذكر شيئا عما حدث بعد ذلك . ومن الجائز اننا لن نستطيع ابدا أن نعرف ماذا حدث بعد ذلك ، ولكن يبدو من المؤكد ان مالينسون لم يصل الى الصين على الاطلاق . لقد قمت بابحاث كثيرة ، وحاولت ان احصل على معلومات عن الكتب

والبضائع التى ترسل الى الدير فلم استطع ، وربما كان السبب فى ذلك ان الكهنة يعملون الترتيبات اللازمة لابقاء وسيلة النقل اليهم سرا لا يعرفه احد . ثم حاولت بعد ذلك ان احصل على المزيد من من الانباء من مدينة « تاتسين فو » ، ولكنها مدينة غريبة تبدو كسوق فى نهاية العالم . ولقد وجدت الناس هناك يتصفون بالرقة والادب ، بيد انى لم استطع ان احصل منهم على اية معلومات عن وصول جماعة كونواى الى المدينة

— وهكذا فان كيفية وصول كونواى الى تشانج كينج لا تزال سرا غامضا . .

— ان آخر ما توصلت اليه ان كونواى لا بد وان يكون قد وصل الى تلك الانحاء بطريقة ما من طرق الرحالة المختلفة . .

وصمت رذرفورد مرة اخرى ، كما لو كان ينتظر منى تعليقا على كلامه ، ثم استأنف حديثه قائلا :

— ولكن توجد نقطة اخرى اريد ان اذكرها ، وربما كانت اغرب النقاط على الاطلاق . فقد سألت فى مستشفى الارسالية فى تشانج كينج عن الطريقة التى وصل بها كونواى الى المستشفى ، وهل قدم بنفسه اليهم او احضره رجل آخر ، او وجدوه هم مريضا فحملوه معهم . ولم يتذكروا ما حدث فى بادى الامر ، بيد ان احدى الراهبات قالت فجأة : « اظن ان امراة احضرته الى هنا ، كما قال الطبيب حينئذ »

« ولما كان ذلك الطبيب الذى ذكرته الراهبة قد غادر المستشفى الى مستشفى آخر كبير فى شنغهاى ، فقد اخذت عنوانه وذهبت لمقابلته هناك . وقد وصلت الى المستشفى عقب غارة جوية يابانية، وكان الجو كئيبا ، غير ان الطبيب كان لطيفا ومهذبا معى على الرغم من كثرة مشاغله حينذاك . وكنت قد قابلت الرجل من قبل عند زيارتى الاولى لتشانج كينج . وما أن سألته عن الظروف التى

أحاطت بدخول كونواى الى المستشفى فى تشانج كيانج ، حتى تذكر الحادث ، واجاب بانه متأكد من ان امراة صينية احضرت كونواى الى المستشفى ، وانه كان فاقد الذاكرة ، ولم يتذكر شيئا عن السيدة التى كانت ترافقه ، سوى انها كانت مريضة بالحمى نفسها

« ولقد ذكر لى الطبيب أن تلك المراة لم تعش بعد ذلك الا ساعات قلائل ، وما ان ذكر الطبيب هذه المعلومات حتى امتلأت ردهات المستشفى بجرحى الغارة الجوية ، فوجدت من غير اللائق تعطيله عن القيام بواجبه ، وطرحت عليه سؤالا اخيرا كان يشغل خاطرى : « وهل كانت تلك المراة الصينية تبدو صغيرة السن ؟ » فتطلع الى الرجل برهة فى جد ورزانة ، ثم خاطبنى بالانجليزية فى لكنة صينية لطيفة قائلا : « كلا . . . لقد كانت عجوز جدا ، اعجز من رأيت من الناس » !

***

الأفق المفقود

يسر مؤسسة «كامل مهدى» أن تقدم للقراء هذه الرواية التى نالت جائزة «هاوثورن دن» — أعلى الجوائز الأدبية فى انجلترا. ونشر ترجمة أمينة لهذه القصة مساهمة فعالة فى نشر الثقافة الروائية، لا يجنى فوائدها طلبة السنة الثالثة الثانوية الذين قررت عليهم هذه الرواية فحسب، بل جميع قراء الرواية بلا استثناء . . .

الناشر : مؤسسة كامل مهدى
١٤ شارع عماد الدين - ت ٤١٣٠٣